كفاح القوميّة العربيّة



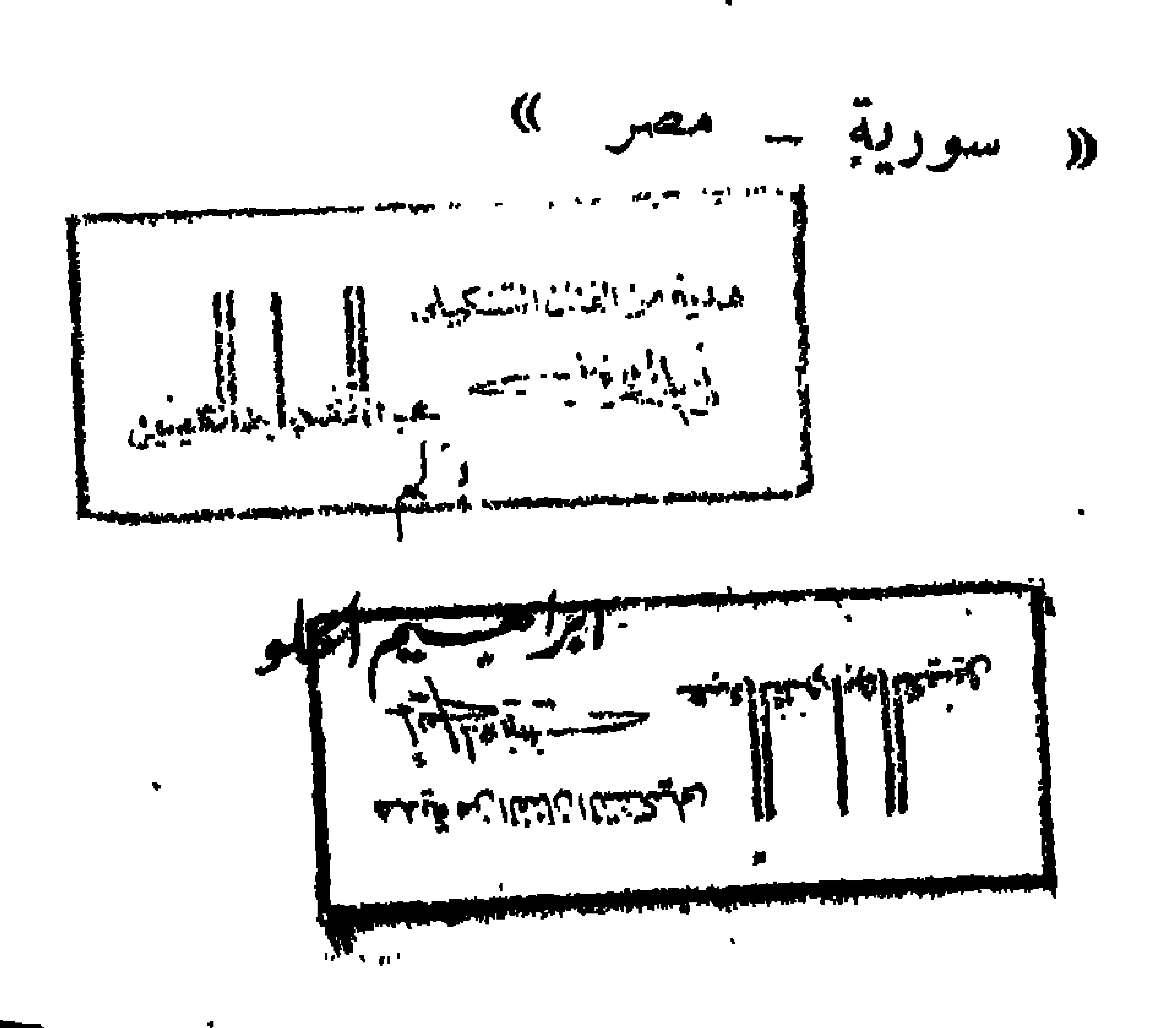
في عصر
جمال عبد الناصر

بقلم
ابراهيم الحلو

منشورات مؤسسة النوري - دمشق

كفاح
القوميّة العربيّة
في القرن العشرين

« سورية - مصر »



منشورات مكتبة حسين النوري - دمشق

تمهيد

يقول الدكتور طه حسين : ((**القومية العربية ، اذا اردنا ان نعرف متى تكونت بالمعنى الدقيق لكلمة القومية ، فينبغي أن نردها الى ظهور الاسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية بجميع انواعها وفروعها ، الوحدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية أيضا ، انما هو النبي (ص) ..**))

ويقول الدكتور طه حسين في مكان آخر : ((**ولم ينتقل النبي الى جوار ربه الا وقد تمت وحدة الجزيرة العربية ، ووجدت قومية عربية منظمة لها قانونها وهو القرآن ، ولها نظامها السياسي الذي يقوم على ما دعا اليه القرآن من العدل والانصاف والمساواة بين الناس ..**))

ويبدو جليا ان الدكتور طه حسين لم يقبل قومية عربية لا نظام لها ولا قانون يعالج مشاكل الناس ، ولا فلسفة تنظم المجتمع العربي الجديد .. وبتعبير آخر : انه لا يقبل وجود قومية بدون حكومة ..

وخطل فادح ان نفهم من كلام طه حسين انه يزعم القومية

بنت الدين البكر وان لا قومية بدون دين واحد ينتظم المجتمع كله ، حتى ولا بالنسبة للقومية العربية التي نبتت في تربة الاسلام ، الذي كان نظاما للحياة الدنيا ، وقانونا للمجتمع العربي كما كان فلسفة روحية دينية شاملة . .

وواضح ان طه حسين يرى الاسلام مكونا للقومية ، وموحدا للعرب ، باعتباره نظاما اجتماعيا ، وقانونا مدنيا ، فلا يصح ان تختلط هذه النظرية حتى تضيع معالمها فينتهي بنا الامر الى اعتبار القومية وليدة الدين لا تقوم لها بدونه قائمة .

أمّا الدكتورة **سهير القلماوي** فتذهب غير هذا المذهب ، فالقومية في نظرها ((**غريزة الدفاع عن النفس ، لا تستيقظ الا عند مداهمة الخطر للقوم**)) **وهي ، في رأيها أيضا** ، ((**طاقة أدبية ، مازالت غير مفهومة ولا محدودة**)) .

ولعل تعبير الدكتورة عن القومية العربية بأنها غريزة الدفاع عن النفس لا يبتعد كثيرا عن حقيقة هذه القومية وان كان ليس سوى عنصر من عناصرها ، ذلك ان القومية ، كل قومية ، فيها عنصر قوي من غريزة الدفاع عن النفس ، هذه الغريزة التي « تستيقظ على الخطر فتوحي بالعمل والتضحية ولكنها توحي بالادب الحي الخالد » على حد تعبير الدكتورة . . ولنا من التاريخ اكثر من شاهد ، فكلما تعرضت الشعوب العربية لخطر خارجي التفت وتكتلت ، وتوحدت وتساندت ، كما حدث أثناء الغارات الصليبية قديما واستشراء الخطر الاستعماري حديثا .

أمّا عن اختلاط مفهوم القومية ، والقومية العربية بوجه

خاص ، فأمر لا نقر الدكتورة عليه لسبب بسيط جدا هو ان النضال العربي الطويل ، وبخاصــة في القرن العشرين ، قرن يقظة الشعوب العربية ، يقرر غير هذا الذي ذهبت اليه الدكتورة القلماوي كما سنرى في الفصول الآتية :

أمّا **محمود تيمور** ، فهو يؤيد ، الى حد ما ، رأي الدكتورة القلماوي عندما يقول عن القومية العربية : ((**بيد ان هذه القومية العربية لم تكن لها دلالة مختمرة في اذهــان الكتاب ، ولم تكن مستبينة المعالم فيما تجري به الاقلام**)) وفي مكان آخر : ((**كنا مضطربين في امرها اشــد الاضطراب ، مختلفين فيهــا كل الاختلاف ، يتعصب لها نافريق ، ويثور عليها فريق آخرون ..**))

ومحمود تيمور في قوله هذا لا يعدو الحقيقة الواقعــة ، ولا يبالغ في تصوير البلبلة الفكرية التي كانت سائدة ، وطبيعي ان تسود ، في فترة كثرت فيها أراجيف المرجفين ودعــايات المغرضين ، حول الفكرة الجديدة الناشئة ، الآخذة بالتبلور ، القومية العربية . وليس لنا ان نسقط من حسابنا ، في هــذا المضمار ، الدعايات الاجنبية السامة ، والتضليل الاستعماري المركز ، الذي كانت الغاية منه احداث البلبلة الفكرية ، فضلا عن أن النضج الفكري لم يكن قد اكتمل عند الناس ، حتى الادباء منهم ، اكتمالا كافيا لهضم الفكرة المتبلورة حديثا .

وهنا ، لا نرى مناصا من الاشارة بحقيقة كبــيرة اخرى : هي ان القومية العربية لم تكن قد اتيح لها من يلبسها اللبوس

العصري الجديد بفكرة كتب لها أن تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ، وان تقارع احدث الافكار الاجتماعية والسياسية ، تلك الافكار المبنية على فلسفات وتجارب واسس علمية حديثة . فالقومية العربية كانت ، في ذلك الوقت ، شيئا قديما ، عفى عليه الزمن ، فجرده من مفعوله النفسي ، وتركه جسدا بلا روح .

ويدرك تيمور هذه الحقائق فيقول في موضع آخر : ((**القومية العربية اليوم يقظة لعمل ، وسعي الى هدف ، وهي تفاؤل بغد ، وايمان بمستقبل ، وانبعاث الى امام ، وهي نزعة موحدة الى الحرية والعزة وتقويم الشخصية في هذا المعترك الذي يحف بنا من كل جانب**)) .

وهكذا يعترف تيمور بما آل اليه امر هذه الفكرة الحديثة ، وما اصبحت به من قوة وفعالية وتأثير . وكيف انها تخلت عن الجمود القديم ، وتعرت من الثوب البالي ، وبرزت الى المعترك العالمي فكرة قوية نابضة بالحياة لتقارع وتنازل وتناضل ..

امّا **رئيف الخوري** فيرى القومية العربية ظاهرة حديثة جدا وفي هذا يقول : ((**لاشك ان القومية العربية التي نعنيها هي ظاهرة حديثة جدا ، تحررية ، تطورية ، اذا شئنا تعبيرا حسيا عنها في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع**)) .

والاديب اللبناني لا يخرج في اقواله هذه عن روح وجوهر ما قاله محمود تيمور ...

هذه اقوال جماعة من الادباء والمفكرين في مفهوم القومية العربية الحديث هذا المفهوم ، الذي ما زال مجالا للجدل والنقاش ، الا انه ، رغم اختلاف الآراء ، أصبح مفهوما واقعيا لا مراء فيه ، وهو ، رغم تضارب الآراء ، يعود بجذوره الى نهضة العرب الحديثة ، الى اواخر القرن الماضي ومطلع القرن العشرين .. وهذا لا يعني ، طبعا ، ان جذور القومية العربية لا تغور في الارض الى أبعد من أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، انما هي ، كما قال الدكتور طه حسين ، ترجع الى انبثاق الاسلام ، وانتظام المجتمع العربي في ظل أول قانون وأول نظام ..

الا ان هذه الفكرة قد تعرضت ، خلال التاريخ العربي المضطرب الطويل ، الى عوامل عديدة لا تحصى ، عوامل كانت ترفعها تارة وتخفضها اخرى ، فتؤثر فيها سلبا وايجابا ، ولكنها تبقى ابدا ممثلة بمظاهر لا تخفى على عين : هي ذلك الاباء والشمم ، والكرم والشجاعة ، والعصبية للعروبة ، والاعتزاز بالاصالة العربية ، والكرامة العربية ..

الا ان هذه الفكرة هجعت ، كما هجعت كل مقومات المجتمع العربي ، خلال قرون التمزق السياسي ، والوقوع في قبضة الاستعمار التركي الغشوم .. ثم استفاقت ، مع استفاقة المجتمع العربي ، في أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن ..

واذا كان المجال لا يتسع ، في هذا الكتاب ، الى بحث تطورات القومية العربية خلال عصور التاريخ العربي ، فان القاء نور

على انبثاقها وتطورها المعاصرين اجدى نفعا واقرب الى المفهوم القومي المعاصر ، وابعد اثرا في نفوس قراء اليوم الذين يعيشون في تيار القومية العربية الجارف .. وعليه ، فاننا سوف نقصر بحثنا في هذا الكتاب على تطور القومية العربية في عصر الانبعاث ...

الفصل الاول

الحركة الفكرية العربية وأثرها في انبثاق القومية العربية

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر احداثا في الحياة الاجتماعية والسياسية كان لها الاثر القوي في جعل هذه الفترة نقطة الانطلاق نحو عصر النهضة ، عصر القومية العربية، التي نعيشها الآن .

وما من ريب في ان العصر المظلم الذي امتد من عام ١٥١٦ حتى عام ١٩١٨ ، وجثم فيه الحكم العثماني على صدر البلاد العربية اربعة قرون كان له ابعد الاثر في قتل كل موهبة فكرية، حتى عادت الامة العربية وهي صفر اليدين من كل ادب وعلم ، ناهيك عن السياسة والاجتماع ، لولا بعض البارقات التي كانت تلوح بين حين وحين مشيرة الى امتداد الروح العربية الوثابة خلال فترة الانحطاط الطويلة .

امّا الحركة الفكرية فقد بدات فعلا في لبنان وذلك بتأثير المدارس الاجنبية التبشيرية التي كانت تعنى بتدريس اللغة العربية على يد **ناصيف اليازجي** الذي الف كتبا مدرسية في علم القواعد والمنطق والخطابة والعروض . وولده **ابراهيم اليازجي** الشاعر الصحفي الذي اصدر في القطر المصري : **البيان والضياء** .

ثم كان **بطرس البستاني** الذي عرّب الكتاب المقدس ونشر معجم (**محيط المحيط**) وانهى قبل وفاته ستة أجزاء من (**دائرة معارف البستاني**) التي اتمها اولاده فيما بعد في احد عشر جزءا . وكذلك **سليمان البستاني** الذي ترجم **الياذة هوميروس** شعرا عام ١٩١٠

ومن اعلام المفكرين في هذه الفترة **جمال الدين الافغاني**، الذي دعا في ابحاثه الى الجامعة الاسلامية وطاف بمصر والهند والحجاز واوروبا واقام في الاستانة وهو ، وأن كان اصله غير عربي ، فقد كتب باللغة العربية وعالج الكثير من مشاكل العرب في تلك الفترة .

ومن هؤلاء الاعلام أيضا **الشيخ محمد عبده** الذي تخرج في الازهر وتتلمذ على الافغاني واصدر واياه جريدة « **العروة الوثقى** » في باريس وبعد ان اقام فترة في بيروت ، هاربا من الاضطهاد البريطاني ، عاد الى مصر وعين مفتيا للديار المصرية .

أمّا **عبد الرحمن الكواكبي** فهو صاحب كتابي « ام القرى » و « **طبائع الاستبداد** » وكتابه الاخير يعالج قضايا على جانب عظيم من الخطورة والدقة ولاسيما ما كان منها متعلقا بالاستعمار التركي ونقده باسلوب مبطن يبرره الاستبداد الذي كان سائدا آنذاك . والكواكبي من مدينة حلب .

وظهر كذلك في هذه الفترة **محمود شكري الالوسي** من العراق وقد وضع كتابا جليل الفائدة عنوانه « **بلوغ الارب في احوال العرب** » تعرض فيه الى دراسات اجتماعية وادبية واجتماعية .

أمّا **قاسم امين** فهو أول مفكر اجتماعي عربي أوتي من الجرأة ما استطاع به المطالبة ، في ذلك العصر المظلم ، بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، وكان لافكاره الاجتماعية الجريئة وقع صاعق في مختلف الاوساط تركتها في ذهول .

وقد تشكلت في دمشق حلقة من الكتاب والادباء برآسة **طاهر الجزائري** ، وكان من ابرز أعضاء هذه الحلقة ، **الشيخ سليم البخاري ، ورفيق العظم ، وعبد الرحمن الشهبندر ومحمد كرد علي** .

كما انشأ بعض اللبنانيين الذين نزحوا الى مصر **كجرجي زيدان وتقلا وصروف ونمر** بعض الصحف وأهمها **الاهرام والمقطم** وبعض المجلات واهمها **الهلال والمقتطف** . وكذلك اسس **محمد كرد علي** جريدة ((**الشرق**)) بدمشق .

وصحيح ان هذه الحركة الفكرية الناشئة ، بعد عهود الانحطاط ، الناشطة ، بعد فترات السبات العميق ، لم تتعرض للقومية العربية مباشرة ، ولم تدع ، الا في النادر ، الى الاستقلال والتخلص من نير الاجنبي المستعمر ، ولم تحاول تحديد مفهوم القومية العربية علميا ، الا انها التفتت الى الماضي ، لانها ليس لها حاضر ، واجترفت من معينه الثر ، فكان الماء الذي وردته عربيا صرفا زلالا ، فراحت تشيد بمفاخر العرب ، وتاريخهم العريق المجيد ، وتتغنى بصفاتهم الخيرة الكريمة ، فاخرجت للاجداد صورة تغري الاحفاد بتقليدها والنسج على منوالها ما وسعهم التقليد والنسج ... وكان هذا اول منطلق للقومية

العربية الحقة دون ان يشار اليها صراحة في الاقوال والكتابة..

فان فضل هؤلاء الرواد الاول فضل عميم ، فهم الذين أزالوا ركام السنين عن معالم الطريق القويم فوضحت هذه المعالم ايما وضوح امام السابلة من الاجيال العربية الصاعدة ..

وتسلمت هذه الاجيال المشعل العربي من الرواد الاوائل الشجعان لتشق به ظلمات تراكمت فيما بعد محاولة خنق نوره الوهاج .. ولكن النور كان ابدا اقوى من الظلام ..

أمّا الطريق التي سارت عليها الاجيال العربية الصاعدة فطويلة وعرة المسالك ، لابد لقطعها من دم يراق ، ودمع يجري وعرق يتحلب ...

والاجيال العربية الصاعدة لم تبخل بدم ولم تضن بدمع ولم تدخر عرقا .. كما سنرى في الفصول الآتيات :

الفصل الثاني

الكفاح العربي قبل الحرب العالمية الاولى

(١٩٠٠ – ١٩١٤)

ظهرت الوطنية العربية الى الوجود في العشر الاول من القرن العشرين ، الا انها لم تتبلور وتتخذ شخصية واضحة الا سنة ١٩٠٨ وذلك على اثر انتصار الاتحاديين على السلطان عبد الحميد ووضع يدهم على مقدرات الدولة العثمانية ، اذ تبنوا سياسة تركية بحتة وجعلوا همهم القضاء على العناصر غير التركية الخاضعة للدولة العثمانية . وكان العرب اقوى هذه العناصر ، فلم يلبثوا ان شعروا بالخطر المحدق بهم وخشوا من بطش الاتحاديين فقاموا يطالبون باللامركزية لاضعاف سلطة الاتحاديين في البلدان العربية ، ولم يطالب العرب يومذاك بالاستقلال التام لاسباب عديدة وظروف خاصة ، اهمها خوفهم من بطش الاتراك وهم لم ينظموا امرهم بعد ، ولرباط العاطفة الاسلامية الذي كان يشدهم الى الترك ، لان الفكرة القومية لم تكن قد تبلورت في الاذهان بقدر كاف لفصلها عن العاطفة الدينية .

وهكذا ولدت أول حركة وطنية عربية ، ثم ان تاريخ العرب

المجيد الذي بعثته الحركة الفكرية التي اشرنا اليها في الفصل السابق ، ان هذا التاريخ اخذ يفعــل فعله في نفوس العرب وعقولهم ، وراح يغذي وطنيتهم ويمدها بقوة نفسية بعيدة المدى ، عميقة القرار ، كما غذا ، من قبل ، تاريخ اليونان وطنية اليونانيين فهبوا يطالبون بالاستقلال عن الدولة العثمانية ، وبدأ أول اصطدام حقيقي بين العرب والاتراك في سنة ١٩١٠ عندما قرر الاتحاديون في مؤتمرهم الذي انعقد هــذه السنة مقاومة فكرة اللامركزية التي يطالب بها العرب .

وجدير بالذكر ان الفكرة الوطنية العربية لم تكن ترتكز ، في تلك الفترة ، على الشعب بمختلف طبقــاته ، لنقص الوعي عنــده ، بل على بعض الافراد المفكرين المثقفين ، فقــام هؤلاء الافراد بتشكيل جمعيات واحزاب عربية لا ترتكز الى أية قاعدة شعبية ، وتلك نقطــة ضعف فيهــا ولكن منطق الاشياء كان يفرضها ...

وكانت أهم الجمعيات والاحزاب التي الفها العرب قبيل الحرب العالمية الاولى وهدفها تحقيق اللامركزية ، هي :

١ ـ **جمعية الاخاء العربي العثماني** : اسست في الاستانة عام ١٩٠٨ عقب الدستور العثماني الذي نشره عبــد الحميد واستقبلت هذه الجمعية النواب العرب في مجلس **« المبعوثان »** الذي شكل على اثر اقرار الدستور .

٢ ـ **المنتدى الادبي** : اسس في الأستانة ايضا سنة ١٩٠٩ من قبل عدد من النواب والطلاب العرب . وكان ظاهره ادبيا

وحقيقته قومية . وقد قام هذا النادي ببعث التراث العربي فمثل رواية صلاح الدين الايوبي ولكنه اغلق عام ١٩١٥ بعد نشوب الحرب .

٣ ــ **الجمعية القحطانية** : اسست في الاستانة أيضا عام ١٩٠٩ من شباب العرب وضباطهم وكانت سرية غايتها انشاء امبراطورية تركية ــ عربية على غرار الامبراطورية النمسوية ــ المجرية .

٤ ــ **الجمعية العربية الفتاة** : كانت سرية ايضا وهي أهم هذه الجمعيات وقد اسست في باريس عام ١٩١١ من قبل سبعة من الطلاب العرب في فرنسا هم : **أحمد قدري ، عوني عبدالهادي ، رستم حيدر ، رفيق التميمي ، محمد المحمصاني ، عبد الغني العريسي وجميل مردم بك** . وفي سنة ١٩١٢ انتقل مركز هذه الجمعية الى بيروت ثم الى دمشق وعنهما انبثق حزب الاستقلال العربي ، وهي الجمعية التي انضم اليها **الامير فيصل** عام ١٩١٥ حين مروره بدمشق قاصدا الاستانة .

٥ ــ **حزب اللامركزية الادارية العثماني** : اسسته الجالية السورية بمصر عام ١٩١٢ وكان رئيسه **رفيق العظم** وامين سره **حقي العظم** .

٦ ــ **جمعية الاصلاح** : اسست في بيروت عام ١٩١٣ من اعيان بيروت ونوابها ثم انشئت في البصرة جمعية اصلاح على غرارها .

٧ ـ **جمعية العهد** : اسست في الاستانة عام ١٩١٣ من قبل الضباط العرب وكان لها فرعان في الموصل وبغداد .

وكذلك عقد في باريس في ١٨ حزيران ١٩١٣ مؤتمر عربي قام به طلبة العرب وحضره مندوبون عن البلاد العربية وترأسه عبد الحميد الزهراوي الذي كان من ابرز زعماء الحركة العربية وعضوا في مجلس الاعيان العثماني وقد دام هذا المؤتمر مايقرب من اسبوع واتخذ مقررات هدفت الى تحقيق اللامركزية في البلاد العربية .

كانت كل هذه الجمعيات والاحزاب تعبيرا عن تململ القومية العربية في صدور العرب ، هذا التململ الذي لم يلبث أن قوي مع الزمن وتبلور بمقدار ازدياد عدد المثقفين في المجتمع العربي ..

الفصل الثالث

الكفاح العربي خلال الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨)

ولقد وجد هذا التململ منفرجا له ، وتعبيرا عن شعوره ، في الثورة العربية التي اعلنها شريف مكة والتي لم تكن دوافعها قومية كلها ، بل كان لها من الدوافع ألوان مختلفة ، نجملها هنا احتراما للحقيقة والتاريخ ..

يمكن ارجاع اسباب هذه الثورة الى عاملين اساسيين وعاملين عارضين :

العامل القومي :

تأثر شريف مكة الحسين بن علي بالحركة العربية فرأى من حقه ومن واجبه ، وهو خادم الحرمين الشريفين ، ومن سلالة الرسول الاعظم ان يتزعمها . ففكر بالثورة على الترك ولكنه رأى قبل الاقدام عليها ضرورة الاتفاق مع الحلفاء كي يحصل منهم على وثيقة رسمية باستقلال العرب ولكي يعتمد على مالهم وسلاحهم في سبيل نجاح الثورة ، ولم يكن الحلفاء ، ولا سيما انكلترا ، اقل رغبة منه فيهذه الثورة لاتخاذها ذريعة لتهدئة خواطر البلاد الاسلامية الواقعة تحت حكمهم والتي كانت تنظر الى الحلفاء كعدو للخلافة الاسلامية العثمانية .

وثمة عنصر لابد من الاشارة اليه هنا وهو الدور الذي لعبته الجاسوسية الانكليزيةالتي لعبت دورا خطيرا في هذه القضية، فقد عرفت كيف تستغل كراهية العرب لمستعمريهم الاتراك ، وعرفت كذلك كيف تتملق المسلمين بشخص الملك حسين ابن علي فتصيب عصفورين بحجر واحد : خلق المتاعب للاتراك وخطب ود العرب ليكونوا مساعدا لها في الحرب اولا ثم للتمهيد لاستعمارهم بعد الحرب .. وانطلت اللعبة على الشريف حسين ومن لف لفه من اعوان واتباع ، وقد خيل اليهم ان الانكليز سيقدمون لهم العون للتحرر من ربقة الاستعمار التركي ثم يقرون مبدأ استقلال البلاد العربية جميعها تحت ظل عرش هاشمي تمتد ممتلكاته من جبال طوروس شمالا الى البحر العربي جنوبا ومن المتوسط غربا الى الخليج الفارسي شرقا ..

ان الشريف حسين ورهطه كانوا اطفالا في السياسة دون ريب ، فحيلة الانكليز وخداعهم لا تنطلي الا على الاطفال ، فكيف يصدق انسان ان هؤلاء الانكليز الذين يعتبرون بحق اعتى واعرق شعب استعماري ، ولا سيما في تلك الفترة من التاريخ ، كيف يصدق انسان انهم مخلصون في وعودهم المعسولة فيتركون هذه الرقعة العريضة من هذا الشرق ذي الموقع الستراتيجي الخطير على طريق الهند التي كانت ما تزال مستعمرة لهم ، يتركونها لعرش هاشمي يحلم بالخلافة الأسلامية ؟

واذا فرضنا غير هذا ، أي اذا نفينا عن الشريف حسين

صفة الطفولة في السياسة والانخداع بالوعود الخلابة ظاهرة الزيف والبهتان ، اذا نفينا عنه ذلك خشينا أن نلصق به تهمة الخيانة والتواطؤ مع المستعمرين بغية تحقيق حلم زائل بعرش هاشمي له ولاولاده واحفاده من بعده ..

اما منطق التاريخ فلا يستبعد كثيرا هذه الفرضية الاخيرة ، بدليل ان اولاد الحسين واحفاده ارتضوا لانفسهم عروشا قوائمها حراب المستعمرين وكرسوا حياتهم كلها لخدمة غير مصالح الشعوب التي « عينوا » لها ملوكا ...

ولنعد الى وقائع التاريخ ... قلنا ان الجاسوسية الانكليزية لعبت دورا خطيرا في قضية الثورة العربية .. فقد بدأ بالفعل الاتصال بين الشريف حسين والانكليز بواسطة أحد ضباط الاستخبارات الانكليزية المستشرقين هو الكولونيل لورنس الذي اصبح عمليا ، قائد الثورة وموجهها الحقيقي . وللورنس هذا شخصية فذة حقا كان لها التأثير البالغ في حوادث تلك المرحلة الدقيقة من التاريخ العربي ..

كان لورنس ضابطا برتبة كولونيل في سلاح الجو البريطاني وكان قد زار البلاد العربية قبل الحرب العالمية الاولى للاطلاع على آثارها التاريخية وتعلم اللغة العربية والوقوف على أحوال العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، ليستطيع أن يخدم الاستخبارات البريطانية عن هذا السبيل . فلما بدأت بوادر الثورة العربية بالظهور ، لم تجد الحكومة البريطانية أفضل من لورنس هذا ليكون رسولها الى العرب فيقوم بتوثيق علاقاتها بهم لخدمة

المصلحة البريطانية طبعا ، وقد اندمج فعلا في دوره الجديد ، بفضل شخصيته الفذة ، فعاش مع العرب في مضاربهم ، وتزي بزيهم وساهم في الحركات العسكرية واستطاع أن يجتذب حب القبائل العربية اليه بمجاراتهم في حياتهم الخشنة وكان هو الذي يتولى توزيع السلاح البريطاني على القبائل كما كان ينفق الذهب الكثير يوزعه عليهم بسخاء . وقد رافق الثورة العربية في جميع تطوراتها ودخل دمشق الى جانب الامير فيصل .

ومن الانصاف لهذا الرجل أن نقول انه كان يرى الخير كل الخير لبريطانيا والعرب معا في أن تقوم دولة عربية مستقلة موحدة تكون مرتبطة ببريطانيا بروابط الصداقة والمودة وتبادل المنافع ، والدليل على صدق هذه النظرية النقمة التي اعلنها على حكومته عندما فرضت الانتدابات على البلاد العربية وقطع الحلفاء اوصالها ولا سيما عندما قطع بلفور وعده المشؤم لليهود ، وقد تجلت نقمته برسائل الاحتجاج التي ارسلها الى حكومته وبرده الاوسمة الحربية البريطانية والفرنسية التي كان قد منحها اثناء الحرب ، فقد احب هذا الرجل العرب وشاء مخلصا أن تقوم دولتهم المستقلة الموحدة فجاءت حكومته وكذبت كل ما كان يردده خلال سنوات الثورة العصيبة مئات المرات كل يوم على مسامع العرب الذين وثقوا به وبادلوه حبا بحب .. فجاءت حكومته لتكذبه شر تكذيب ، فنقم عليها شر نقمة .

وضع لورنس عن الثورة العربية مؤلفين الاول « اعمدة

الحكمة السبعة » والثاني « ثورة في الصحراء » وقد وصف في هذين المؤلفين احـداث الثورة وصفا دقيقا وقد ابدى اعجابه بشخصيتين عربيتين همـا الامير فيصل وعودة ابو تايه زعيم عشيرة الحويطات .

وكانت نهاية لورنس سنة ١٩٣٥ في حادث سيارة في أحد شوارع لندن .

قلنـا ان لورنس كان صلة الوصل بين الشـريف حسين والانكليز ، وقد بدأ تبـادل الرسائل بين الشريف والمفـوض السامي الانكليزي في مصر السر هنري مكماهون وقد تعهد هذا الاخير باسم الحلفاء بانشاء دولة عربية مستقلة تمتد من الخليج الفارسي الى حـدود كيليكيا حتى حدود مصر على أن تكون هناك ادارة خاصة ـ اي انكليزية ـ في ولايتي بغداد والبصرة بالاتفاق مع الشريف حسين في نهاية الحرب . وقبل الشريف حسين بالتنازل عن الساحل السوري لفرنسا على ان يعـاد البحث في أمره بعد الحرب وقد جرى هذا الاتفاق بين الشريف والمفوض السامي الانكليزي بواسطة رسـائل متبادلة بينهما اثناء عامي ١٩١٥ ـ ١٩١٦

العامل الاقتصادي :

ان العـامل الاقتصادي عامل اساسي في ثورة الشـريف حسين ، فقد ضايق الحلفاء هذا الاخير من الناحية الاقتصادية ، وفرضت اساطيلهم عليه حصارا شديدا فوضعوا العـراقيل

امام التجارة ، وكانت الضربة القاضية على اقتصاديات الجزيرة العربية منع الحجاج من السفر الى مكة وعزل الاماكن المقدسة عن العالم وحرمان الشريف حسين من الموارد الضرورية التي لم يكن له غنى عنها في تلك الايام حيث لم تكن للبلاد العربية في الحجاز من مورد غيره ما خلا موارد تجارية قليلة قطعت أيضا كنتيجة للحصار البحري الحليف ، وانتهى الامر أخيرا الى تهديد البلاد بالمجاعة .. الامر الذي حدا بالشريف حسين الى الاتصال بالحلفاء على لهفة واستعجال ..

الاسباب العارضة :

من أهم الاسباب العارضة الفظائع التي ارتكبها جمال باشا في سورية ولبنان . وجمال باشا كان أحد اقطاب الاتحاديين ووزيرا للبحرية العثمانية وقد اوفدته الحكومة العثمانية حاكما عسكريا الى سوريا وقائدا للفيلق (الجيش) الرابع الذي كان يتأهب لغزو قناة السويس واستخلاص مصر من الانكليز ..

فقد بطش هذا السفاح بالحركة الوطنية العربية وعلق على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في يوم واحد مشهود ، هو يوم ٦ ايار ١٩١٦ كثيرين من رجالات البلاد حتى لقبه العرب بجمال السفاح . وقد اثارت اعمال جمال باشا خواطر العرب في جميع اقطارهم ، وقد اوفد الشريف حسين ابنه الامير فيصل للشفاعة برجالات العرب قبل اعدامهم فلم تجد شفاعته شيئا ، ونفذ القضاء الظالم في تلك الطليعة الجريئة الباسلة من رواد القومية العربية الاول ..

وهاكم اسماء رجالات العرب الذين علقهم جمال باشا على اعواد المشانق بعد محاكمة صورية تمت أمام المجلس العرفي المنعقد في عاليه بلبنان :

١ ــ الكاهن الماروني يوسف الحايك ، شنق بدمشق في ٢٢ آذار ١٩١٥

٢ ــ القافلة الاولى في بيروت في ٢١ آب ١٩١٥ وتضم كلا من عبد الكريم الخليل ، صالح حيدر ، مسلم عابدين ، نايف تلو ، محمد المحمصاني ، محمود المحمصاني ، عبد القادر الخرسا ، محمود العجم ، سليم عبدالهادي ، نور الدين القاضي علي الارمنازي .

٣ ــ يوسف الهاني شنق في بيروت في ٥ نيسان ١٩١٦

٤ ــ القافلة الكبرى من ٢١ رجلا تم شنقهم في يوم واحد في بيروت ودمشق في صباح اليوم السادس من شهر مايس عام ١٩١٦

وقد تم شنق اربعة عشر رجلا في بيروت وسبعة في دمشق، أما الذين استشهدوا في بيروت فهم : عمر حمد ، محمد الشنطي ، عبد الغني العريسي ، عارف الشهابي ، توفيق البساط ، سيف الدين الخطيب ، الشيخ أحمد طبارة ، سعيد عقل ، بيترو بالي ، جورج حداد ، سليم الجزائري ، علي حاج عمر ، أمين الحافظ ، جلال البخاري .

اما التسعة الذين استشهدوا في دمشق فهم : عبد الحميد

الزهراوي ، شفيق المؤيد ، عمر الجزائري ، شكري العسلي ، عبد الوهاب الانكليزي ، رشدي الشمعة ، رفيق رزق سلوم .

٥ ـ شنق الشيخين فيليب وفريد الخازن في بيروت في ٥ حزيران ١٩١٦

اما التهم التي وجهها جمال باشا الى هؤلاء الشهداء ، فقد اشار اليها في مذكراته بقوله انهم خانوا الدولة العثمانية ... وهو ينظر طبعا من زاوية خاصة ، تعتبر هؤلاء الشهداء عثمانيين لا عربا .. ولكن التاريخ لم يكن محابيا للسفاح عندما قال ان هذا العمل المنكر الذي قام به أحمد جمال باشا كان تغطية دموية لفشل حملته على قناة السويس ومحاولته الاستيلاء على مصر . لم يكتف جمال باشا بهذا بل أخذ يبعد ضباط العرب عن بلادهم وينفي كبار الاسر العربية الى الاناضول وتقدر الاسر التي نفيت ، في هذه الحملة الارهابية ، بثلاث مئة اسرة من سورية وفلسطين ولبنان .

ومن القضايا الوطنية الهامة التي تجدر الاشارة اليها هنا القضية التي عرفت في التاريخ باسم (قضية خان الباشا) ، وخلاصتها ان جمال باشا أوقف عددا من الشخصيات في سجن خان الباشا بدمشق منهم : شكري باشا الايوبي ، وشكري القوتلي ، وفارس الخوري ، وسعدي الملا ، وعبد الحميد باشا القلطقجي ، والدكتور احمد قدري ، وعمر الرافعي ، ثم حكم بالاعدام على كل من شكري الايوبي وعبد الغني الرافعي ،

ولكن محكمة التمييز العسكرية في الاستانة رفضت هذا الحكم وكانت الحكومة قد سحبت صلاحية تنفيذ الاعدام من قبل جمال السفاح بعد الضجة الكبرى التي حدثت على اثر اعدام قوافل الشهداء الاولى .

وجدير بالذكر ان سبب الحادث المشهور هو اقدام شكري القوتلي على الانتحار بقطع شريان يده حرصا منه على كتمان اسرار جمعية العربية الفتاة ازاء محاولة السلطات الوصول لهذه الاسرار عن طريق تعذيبه ، وكادت محاولة الانتحار ان تنجح لو لم يقم الدكتور أحمد قدري بالاسعاف السريع .

هكذا كانت أحوال العرب عندما اطلق الشريف حسين رصاصته من بندقيته في الهواء ايذانا باعلان الثورة على الاتراك في صباح اليوم العاشر من حزيران ١٩١٦ الموافق ٩ شعبان ١٣٣٤ ، وكان من المتفق ان يتريث الحسين باعلان الثورة الى فصل الشتاء حيث يسهل القتال في تلك المناطق الحارة الا ان الاخبار المتواترة عن قرب ارسال حملة تركية الى الحجاز للسيطرة على الموقف جعلته يستبق الموعد المقرر ويعلن الثورة .

وكانت استجابة العرب سريعة لهذه الثورة التي بدت ، في ظاهرها ، مجسدة لآمالهم وامانيهم ، وسرعان ما انضم اليها كثيرون من الضباط والجنود العرب ، من سوريين وعراقيين ومصريين ، فروا من الجيش التركي والتحقوا بهذه الثورة تنفيثا لغلوائهم على الاستعمار التركي الذي اناخ على صدورهم قرونا طويلة مظلمة .. ثم هاجم رجال الثورة فلسطين وسورية

فخربوا خطوط مواصلات الترك وعطلوا لهم اربعين الف مقاتل وبهذه الصورة سهلوا احتلال بلدان الشرق أمام جيوش الحلفاء الزاحفة من مصر ، كما ان الانكليز قد ساعدوا الثورة بأموالهم وأسلحتهم مساعدة فعالة وساهم الفرنسيون في هذه المساعدة بعض المساهمة .

ويقول الكولونيل لورنس في « أعمدة الحكمة السبعة » ان فضل العرب على الحلفاء عظيم لا يقارن به فضل الحلفاء على الثورة العربية ..

الفصل الرابع

الكفاح العربي ما بين الحربين العالميتين (١٩١٩ — ١٩٣٩)

القت الحرب العالمية الاولى أوزارها بعد اربع سنوات فكان تأثيرها في أوضاع البلاد العربية عميقا جدا ، فقد حملت هذه الحرب انقلابا شاملا لحياة هذه البلدان لم يقتصر على الناحية السياسية بل تعداها الى مختلف النواحي العمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ففي الوقت الذي كان الحلفاء **يقطعون الوعود** للشريف حسين باستقلال البلاد العربية وتنصيبه ملكا عليها ، في آذار ١٩١٥ ، عقد اتفاق سري بين الحليفتين انكلترا وفرنسا من جهة وروسيا من جهة ثانية (قبل الثورة الشيوعية) يقضي بمنح روسيا الاستانة والمضايق وقسم من الاناضول لقاء موافقة روسيا على اقتسام كردستان والبلاد العربية بين الحليفتين فرنسا وانكلترا . وقد نشر الشيوعيون الذين استولوا على الحكم في روسيا هذا الاتفاق فيما نشروه من الوثائق السرية التي أبرمتها روسيا القيصرية مع حلفائها بالامس .

وفي ١٦ مايس ١٩١٦ ، أي بعد أن ابرم الاتفاق بين الشريف حسين والانكليز اتفق الممثل الفرنسي « **بيكو** » مع ممثل

بريطانيا ((**سايكس**)) على بنود معاهدة سرية وافقت عليها الحكومتان بواسطة رسائل متبادلة بينهما عرفت باسم معاهدة (**سايكس بيكو**) . وقد تعرضت هذه المعاهدة لتقسيم الجزء الاكبر من اراضي الدولة العثمانية ، أو « تركة الرجل المريض » كما كانوا يطلقون على الدولة العثمانية ، على الوجه الآتي :

قسمت هذه الرقعة الى خمس مناطق : زرقاء وحمراء وسمراء ومنطقتي (آ) و (ب) . أما المنطقة الزرقاء وتشمل سورية الساحلية وكيليكيا وكردستان وديار بكر فقد اعطيت لفرنسا تديرها كما تشاء بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

والمنطقة الحمراء التي شملت ولايتي بغداد والبصرة فقد اعطيت لانكلترا تديرها كما تشاء .

والمنطقة السمراء الشاملة لفلسطين ـ ما عدا مدينتي حيفا وعكا ـ تكون تحت ادارة دولية يعين شكلها بالاتفاق مع روسيا والحلفاء والشريف حسين . واما حيفا وعكا فقد اعطيتا لانكلترا .

وأما منطقتي (آ) و (ب) فتقوم فيهما دولة عربية مستقلة أو اتحاد دول عربية على أن يكون لفرنسا الارجحية في المشاريع الاقتصادية وتقديم المستشارين والموظفين الذين تحتاج اليهم الدولة العربية أو الاتحاد العربي في منطقة (آ) التي تشمل سورية الداخلية وشمال العراق الى ما بعد الموصل وأن يكون لانكلترا هذا الحق نفسه في منطقة (ب) أي في شرق الاردن والقسم الباقي من العراق .

وواضح ان هـذه المعاهدة تناقض بعض التناقض العهود المقطوعة للشريف حسين ، ونقول بعض التناقض حيث هناك شيء من الشبه بين هذه المعاهدة وبين عهود انكلترا أن الشريف حسين قبل مبدئيـا بالتنازل لفرنسا عن الساحـل السوري وبوضع ولايتي بغـداد والبصرة تحت الادارة الانكليزية ، اما التناقض الصريح فينحصر في وضـع فلسطين اذ بينما نص اتفـاق (الحسين ـ مكماهون) علي ان تكون ضمن الـدولة العربية ، نص اتفاق (سايكس ـ بيكو) على جعلها دولية مع اطلاق يد الانكليز في مدينتي حيفا وعكا .

اما فيما يختص بتساهل الشريف حسين مع الحلفـاء ، وتخليه لهم عن جزء من البـلاد العربية فهو ، في نظـر المؤرخ المنصف ، ، نوع من التسليم باستعمار جزء من البلاد ، والتنازل عن حق شرعي ، وتمزيق وحدة البلاد العربية ، ولكن ثمة من يلتمس له الاعذار في ذلك بالظروف الملحة والاوضاع الخاصة ، بينما يفسر آخرون عمله هذا بانه خيانة قومية صريحة الغاية منها جر مغنم شخصي ، هو تنصيبه ملـكا ولو على جزء من البلاد العربية ..

أمـا الواقع فهو ان الشـريف حسين كان يأمل باصـابة عصفورين بحجر واحـد : يحطم النير التركي الثقيل ، ويظفر بعرش وطيد له ولاولاده واحفاده فيما بعد .. ولا ضير عليه ان هو تنازل ، لقاء هذه الاماني المعسولة ، عن جزء من الوطن العربي يقدمه لقمة سائغة للاستعمار .. وليس لنا ان نطلب

من الحسين أكثر من ذلك .. فعقليته وماضيه ، وتفكيره ، وكل مكونات شخصيته ، وتراث اسرته ، لا تسمح له بأن يبعد في اهدافه القومية ابعد من هذا المدى ...

ومن الوثائق المثيرة التي نشرها الشيوعيون فيما نشروا مخابرات دارت سرا بين جمال باشا والحلفاء بغية الاتفاق معهم على تنصيبه ملكا على سورية لقاء توقيع صلح منفرد معهم . ولنلق الآن نظرة عابرة على تطور الكفاح العربي في فترة ما بين الحربين في شتى أقطار العرب .

آ = سورية :

احتل الجيش العربي الذي كان يقوده الامير فيصل دمشق والساحل السوري ثم مضى يطارد فلول الاتراك المنهزمين عبر الاراضي السورية ، وكانت جيوش الانكليز الزاحفة من مصر بقيادة الجنرال اللنبي قد اجلت العثمانيين عن فلسطين واحتلت القدس وسائر المدن الفلسطينية الاخرى . وكان دخول فيصل الى دمشق يوم ٢ تشرين الاول ١٩١٨ وفي ٥ منه اذاع بيانا على الاهلين يعلمهم فيه ان البلاد ستكون تحت حكم عسكري الى أن يتم تنظيم حكومة مدنية وانه قد عين الفريق رضا باشا الركابي حاكما عسكريا .

وكان الجيش العربي قد احتل بيروت أيضا ولكن هذا الاحتلال لم يتجاوز الشهر اذ وصل اسطول فرنسي الى مياه بيروت واللاذقية فاحتلت القوة الفرنسية بيروت في ١٠ تشرين

الاول ١٩١٨ واللاذقية في ١١ تشرين الثاني والاسكندرونة في ٢٤ منه . وفي ٢٢ تشرين الثاني غادر الامير فيصل البلاد لحضور مؤتمر السلم في باريس .

يقول الكولونيل (**بريمون**) في كتابه « **الحجاز في الحرب العالمية** » ص (٣١٠ – ٣١٨) « في صباح السابع والعشرين من تشرين الثاني قابلت مسيو (جان‌غو) معاون‌مدير الشؤون الاسيوية في وزارة الخارجية ، واخذت‌منه التعليمات الشفهية الآتية : وصل الامير فيصل الى فرنسا على طراد انكليزي وقد نزل في مرسيليا ولا نعلم اذا كان ما يزال فيها أم انه ذهب الى ليون . توجه الى مرسيليا أو ليون لمقابلته . وسترى بين مرافقيه المسيو (برتران) وهو وزير مفوض محال على التقاعد وقد ارسلناه منذ أن تلقينا أول اشعار بوصول الامير . ستعامل الامير فيصل كجنرال وكشخصية ممتازة ، ولكنك لن تعترف له بأي صفة سياسية ، وقل له : **ان هذه القضايا – يقصد قضايا البلاد العربية – اعلى من‌مستواك (كذا) وانه لم يمحض النصح قبل‌حضوره ، وانه كان‌ينبغي له أن يتباحث مع مسيو جورج بيكو المندوب الفرنسي السامي في بيروت ، قل له ان الحكومة الانكليزية ليست قادرة على كل شيء ، وانه كان يجب عليها الا تنصحه بالمجيء قبل استشارة الحكومة الفرنسية .**

اتخذ التدابير اللازمة كي لا تأتي به الى‌باريس قبل صدور أوامر جديدة . دعه يزر اي بلد شاء بعد أخذ رأي حكام

المقاطعات وخذه لمقابلة الجنرال غورو الموجود على رأس الجيش الرابع في ستراسبورغ **وسيقلده وسام جوقة الشرف من رتبة** (ضابط كبير) . كن له مرافقا في حله وترحاله ، واستخدم ما تحتاج اليه من سيارات عسكرية .

اخبر المسيو برتران اني اضع تحت تصرفه خمسة عشر الف فرنك تسلمها اليه ، وسترى بقربه الضابطين المترجمين (ريمون) و (جوس) اجعله يزور جامعة ليون وباحثه عن صلة قد توجد في المستقبل بين هذه الجامعة والجامعة العربية التي ستنشأ في دمشق وعن تبادل الاساتذة والطلاب بينهما . **ويجب ان تكون صريحا جدا مع لورنس ـ وكان يرافق فيصل وتفهمه انه سلك سبيلا غير مستقيم . واذا رأيته بصفة كولونيل بريطاني وببزة عسكرية بريطانية فرحب به واما اذا كان بزي عربي ، اي اذا كان ما يزال متنكرا فلا شأن له عندنا .**

ادرس وضعية حاشية الامير ومرافقيه » .

ويتابع الكولونيل (**بريمون**) حديثه قائلا : وصلت ليون في الثامن والعشرين حوالي الساعة الثالثة عشرة وقابلت الامير في فندق « ترمينوس » وكانت بطانة الامير تتشكل من الجنرال نوري باشا السعيد والضابط تحسين قدري ورستم حيدر امين السر الاول وفائز الغصين مستشار الحكومة بدمشق والدكتور احمد قدري طبيب الامير الخاص .

ولما شاهد بريمون **الكولونيل لورنس في لباسه العربي**

اتصل بالمسيو برتران واعلمه عن تعليمات وزارة الخارجية ، فقابل الوزير الامير فيصل وأطلعه على وجهة نظر الحكومة الفرنسية ، وبدون أي تردد أجابه فيصل **ان لورنس سيسافر هذا المساء** ، واستدعاه حالا واطلعه على هذا الامر ، فأسرع لورنس بمقابلة المسيو برتران وقال له : ((**انكم تطردونني .. حسنا سأذهب هذا المساء**)) ورفض ارتداء بزة كولونيل بريطاني نزولا عند رغبة وزارة الخارجية الفرنسية ، وقبل رحيله **اعاد وسام الشرف الفرنسي الى الكولونيل بريمون** الذي ارسله بدوره الى وزارة الخارجية الفرنسية ، ثم ان لورنس استقل القطار قاصدا مرفأ كاليه للابحار الى انكلترا .

ولاحظ فيصل أن الحكومة الفرنسية لم تدعه لزيارة باريس ، فاختلى بالكولونيل بريمون وقال له : ((**لقد حاربنا جنبا الى جنب فنحن اخوان في السلاح واني أثق بصداقتك واستقامتك ، قل لي بصراحة ماذا يجري ؟ فاذا كانت الحكومة الفرنسية راغبة عن ذهابي الى باريس فقل لي بصراحة ، فقد تركت في دمشق اخي زيدا وكيلا عني وهو مايزال شابا قليل التجربة والاحوال غير مستقرة وأنا قلق ، فاذا كنت اضيع وقتي هنا عبثا فالافضل ان اعود الى دمشق**)) وأجاب الكولونيل انه سيرفع الامر الى الحكومة وانه سيبلغه الجواب بكل وضوح ، وفي صباح اليوم التالي وصلته البرقية الرسمية التالية : ((**ان رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبل الامير فيصل بن الحسين نهار السبت ٧ كانون الاول ، الساعة الخامسة ، فيندبروا الامر**

كي تصلوا السبت الساعة الثانية عشرة والدقيقة السابعةعشرة وان مندوبي الحكومة بانتظاركم على المحطة لاستقبال الامير »).

وفي اليوم الخامس من كانون الاول علق الجنرال غورو على صدر الامير فيصل وسام الشرف باحتفال عسكري أعجب به الامير كل الاعجاب .

ووصل الامير الى باريس في الموعد المضروب بعد ان عرج في طريقه على « فردان » حيث زار قلعتهـا الشهيرة وطـاف بساحة المعركة التي تعتبر أضرى معارك الحرب العالميةالاولى. وقد ابدى ملاحظة للمشرفين على القلعة حول عدم وجـود علم عربي بين أعلام الحلفاء المرفوعة على القلعة فوعد خيرا .

وفي باريس قابل رئيس الجمهورية بوانكاريه وبعد ان شهد عدة احتفالات ومآدب غادر باريس متوجها الى مرفأ «.بولون » فوجد في انتظاره لورنس ليصحبه في زيارته الىانكلترا ، وكان الكولونيل بريمون مايزال يرافقه فدعاه لورنس بلطف كبـير لمرافقتهم الى انكلترا وأكد له أنهسيستقبلهناك استقبالا رائعا، ملمحا بذلك إلى طرده هو من فرنسا .. فاعتذر بريمون قائلا ان مهمته تنتهي عند هذا الحد .

وعاد الامير فيصل الى باريس بعد انتهاء زيارته للنـدن ومقابلته للملك الانكليز ، وذلك بغية حضور مؤتمر السلم ، **وقد فوجيء برفض (كليمنصو) رئيس المؤتمر قبول الامير فيصل في المؤتمر ولكن اللورد كرزون وزير الخارجيةالبريطانيةتدخل في الامر واقنع كليمنصو بقبول الامير .**

و ٦ شباط ١٩١٩ تكلم الامير فيصل امام مؤتمر السلم، ودافع عن قضية العرب وطالب بايجاد دولة عربية موحدة مستقلة « على ان تستعين بمستشارين اجانب تستخدمهم عند الحاجة » .

يبدو في هذه الوقائع جميعها تضارب شديد بين وجهتي نظر كل من الحليفتين الغربيتين فرنسا وانكلترا حول (القضية العربية) التي كان يمثلها ويدافع عنها الامير فيصل ابن الحسين . ويتضح هذا التضارب ويظهر اكثر ما يكون اثناء رحلة الامير الى فرنسا في اعقاب الحرب . فوزارة الخارجية الفرنسية قد استقبلته استقبالا باردا وكانت تعليماتها صريحة .. وهي تقضي بابعاده عن باريس تحاشيا لاعطاء رحلته اية صفة رسمية، حتى ان الفكرة التي كانت سائدة اول الامر تقضي بعدم تحديد اي موعد له لمقابلة رئيس الجمهورية ، الا ان الحاح الامير على ذلك هو الذي « اخجل » وزارة الخارجية فاجبرها على السماح له بمقابلة الرئيس مقابلة كانت شكلية بروتوكولية ليس الا .. كما ان استخفاف الفرنسيين به قد بدا واضحا في تلك المظاهر التي احاطوه بها لالهائه عن القضايا الرسمية التي قصد فرنسا من اجل بحثها ... مثال ذلك الطواف به في ارجاء فرنسا .. وتعليق الاوسمة على صدره وغير ذلك من المظاهر الخارجية الفارغة ..

ان الدافع الى معاملة الامير فيصل مثل هذه المعاملة مرده الى ان الحكومة الفرنسية كانت تنظر اليه نظرتها الى عميل

انكليزي أو متعاون مع الانكليز على الاقل ... فثورته ، في نظرهم ، ثورة انكليزية مائة بالمئة ، قامت بتشجيع من الانكليز وغذتها اموالهم الطائلة وسلحت من قبلهم ، فبدهي ان يأمل الانكليز بنصيب الاسد من ثمارها .. والفرنسيون لا يجهلون ان حلفاءهم الالداء لا يفعلون شيئا لوجه الله .. ناهيك عما كان في الشرق من تناحر بين السياستين الانكليزية والفرنسية يعود بتاريخه الى عهد حملة نابليون على مصر ثم قيام محمد علي باشا وغزوه لسورية ولبنان وتطورات المسالة الشرقية بوجه عام وتنافس الدولتين الكبيرتين على تركة الرجل المريض..

فالسياسة الفرنسية كانت ، منذ غزوة نابليون ، مناهضة ، في السر والعلانية ، لسياسة بريطانيا ، وقد تبنت محمد علي باشا وساعدته وغذته ودافعت عن احتلاله لسورية ولبنان باعتبار هذا العمل ضربة قاتلة لمطامع الانكليز في الشرق ، وتمهيدا للنفوذ الفرنسي الذي كان آخذا بالتغلغل منذ سنة ١٨٦٠ . وحتى أثناء الحرب لم تكف السياستان عن التناحر ، الا ان هذا التناحر قد ظهر جليا واضحا بعد ان وضعت الحرب اوزارها وأزفت ساعة اقتسام المغانم . فالفرنسيون طامعون بسورية ولبنان ، وقد تم الاتفاق بين سايكس وبيكو على توزيع التركة ، فكيف يطعنهم حلفاؤهم هذه الطعنة النجلاء فيأتون بهذا الامير صنيعتهم ليملكوه على سورية ، بل وليحتل لبنان ايضا ، وسورية ولبنان نصيبهم من مخلفات الرجل المريض الذي مات ؟..

وغني عن البيان ان الانكليز كانوا يرمون حقا الى هذا

الهدف .. الا انهم كانوا حريصين بعض الحرص على عدم اثارة المشاكل بينهم وبين شركائهم في الحرب والنصر الذي تحملت فرنسا في سبيله القسط الاوفر من التضحيات .. فلو انهم جاهروها بالعداء وعملوا علنا على احباط مشاريعها الرامية الى بسط نفوذها على دولتي المشرق ، لأثـار عملهـم الخواطر ، ولكسب الفرنسيون من جراء ذلك عطف الرأي العام الحليف ، ولقوبلت تصرفات الانكليز بالاستهجان ولهذه الاسباب كلها نجد ان الانكليز ، عندما رأوا تمسك الفرنسيين بنصيبهم من التركة، تخلوا عن الامير فيصل ومشاريع عرشه في سورية لقاء تعويض بدا عادلا في نظره .. وهو عرش في بغداد .. فكان عرشـا بعرش وكفى الله المؤمنين القتال ...

***

وقرر مؤتمر السلم ، وفقا لما جاء في المادة ٢٢ من ميثـاق عصبة الامم ايفاد لجنة استفتاء الى سورية ولبنان وفلسطين لاستفتاء الاهلين في الدولة التي يختارونها لمساعدتهم وارشادهم على التمرس بمهام الحكم الذاتي ، وعلى اثر ذلك غادر الامـير فيصل اوربا عائدا الى دمشق لتهيئة ما يلزم لهذا الاستفتاء فوصل بيروت في ٣٠ نيسـان ١٩١٩

ورفض الفرنسيون الاشتراك في هذه اللجنة تمشيا مـع سياستهم التي لا تنظر بعين الرضاء الى الحكومة الفيصلية ، وجاراهم الانكليز في ذلك اعتقادا منهم بأن فيصل سوف يطبخ

الاستفتاء بحيث يأتي في صالحهم بينما يكون بعدهم عن اللجنة مبررا كافيا لعدم التأثير فيها .

وهكذا اقتصرت اللجنة على الاعضاء الامريكيين وعددهم خمسة وكان يراسهم « تشارلس كراين » وهو من الخبراء بشؤون الشرق وقد كان قبلا سفيرا لحكومته في الصين . وبعد ان طافت هذه اللجنة بسورية ولبنان وفلسطين مدة شهر ونصف الشهر وضعت تقريرا لم ينشر الا سنة ١٩٢٢ خلاصته **ان اكثرية اهل البلاد تطلب الاستقلال وترفض الصهيونية ولا تعترض على قبول مساعدة اجنبية في شؤون الحكم على ان تكون امريكية أو انكليزية ، وان قسما من الاهالي – في لبنان – طلب ان تكون هذه المساعدة فرنسية** . أما يهود فلسطين فقد طالبوا بتحقيق الصهيونية الممثلة بوعد بلفور .

وهكذا اثبت الشعب العربي ، في ذلك الوقت ، وعيا غير قليل وتفهما لا يستهان به اذا قيس بالمستوى الثقافي والفكري في ذلك الزمن .. فالمبدأ الاساسي الذي يطالب بـه الشعب العربي هو الاستقلال ، ورفض الصهيونية .. واذا كان قد قبل بالمساعدات الاجنبية فلأنه رأى ان لا مناص من قبولها ارضاء للدول الكبرى المنتصرة والتي كان بيدها الحل والربط وتقرير المصير ...

ثم ان الامير فيصل تلقى من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يوم ١٠ ايلول ١٩١٩ برقية يطلب اليه بها القدوم فورا الى لندن ويصر بوجوب وصوله في ١٦ ايلول ، فبادر

الامير الى السفر بطريق الاسكندرية حيث ركب نسافة بريطانية ابحرت به يوم ١٣ ايلول متجهة الى مرسيليا ، **ولكن النسافة توقفت فجأة يوم الاثنين في ١٥ منه قرب مالطة بحجة نفاد الفحم والحاجة الى بعض الاصلاحات وقفت هناك يومين ابحرت بعدهما الى مرسيليا فبلغها الامير يوم ١٨ ايلول وسافر الى باريس على الفور ..**

لقد قصد لويد جورج من دعوة الامير فيصل مفاجأته بالامر الواقع ، وابلاغه ما تم عليه الاتفاق بين الحليفتين ، وكانت المفاوضات جارية بينهما وهي توشك ان تبرم عندما ابرق الى فيصل يستدعيه ، الا ان هذه المفاوضات تعرقلت لبعض الخلافات الطارئة ، وكان الامير في طريقه الى مرسيليا فرأى المتفاوضان تأخير وصوله دون ان يشعر الى أن تلتقي وجهتا النظر البريطانية والفرنسية ويبرم الاتفاق بينهما نهائيا ، وهكذا كان تأخير النسافة في الطريق مقصودا وقد تم باشارة لاسلكية تلقتها وهي في عرض البحر من حكومة لندن ..

ووصل الامير فيصل الى باريس فوجد نفسه **امام امر واقع واتفاقية مبرمة ..** وقد نصت الاتفاقية على ان تتنازل انكلترا لفرنسا عن كيليكيا وسورية ساحلا وداخلا مع اطلاق يدها في جميع هذه المناطق ولقاء ذلك تعهدت فرنسا بعدم المطالبة بادخال ولاية الموصل ضمن الحدود السورية وباطلاق يد انكلترا في فلسطين والعراق وبسلخ شرق الاردن عن سورية واعطائه لانكلترا ، أي ان هذا الاتفاق قد عدل معاهدة سايكس

بيكو التي جعلت الموصل من حصة فرنسا ووضعت فلسطين تحت ادارة دولية لا بريطانية فقط ، وقد تنازلت فرنسا عن هذين المطلبين لقاء اطلاق يدها في سورية ولبنان وكيليكيا وكف السياسة الانكليزية عن الدس والوقيعة بها في هذه المناطق ..

وهكذا اتفقت الحليفتان المتناحرتان ، موقتا ، على هدنة سياسية ، بعد ان نالت كل منهما نصيبها الوافر من البلاد العربية ..

وهكذا ضربت الحليفتان عرض الحائط بوعود قطعت للعرب وبأمان معسولة عللوا انفسهم بها عندما مدوا يدهم للحلفاء أثناء الحرب ظنا منهم ان خلاصهم من النير التركي اضحى وشيكا ..

وفوجيء الامير فيصل بهذا الواقع فذهل ، واستنجار بأصدقائه الانكليز فكان جوابهم طعنة نجلاء له ، فقد نصحوه بمفاوضة الفرنسيين رأسا ، فاتصل بكليمنصو وتفاوضا لايجاد حل ، واتفقا اخيرا على مشروع وقعاه عرف بمشروع ((**كليمنصو ـ فيصل**)) وقد جاء في هذا المشروع اعتراف الحكومة الفرنسية بحق ((**الاهالي الناطقين باللغة العربية والقاطنين بالاراضي السورية من سائر المذاهب ان يتحدوا ليحكموا انفسهم بأنفسهم بصفتهم أمة مستقلة**)) .

وفي بند آخر اعترف الامير فيصل **بقصور الشعب السوري**

عن حكم نفسه بنفسه ، اداريا ، وانه يطلب معونة فرنسا للقيام بهذه المهمة ((باسم الاهالي السوريين)) .

وكذلك تعهدت الحكومة الفرنسية بمنح معونتها لسورية وحمايتها ضمن الحدود التي سيعينها مؤتمر الصلح وببذل جهدها ((لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية)) .

وتعهد فيصل بالا يطلب اي مستشار او خبير او موظف او مدرب فني للادارتين العسكرية والمدنية الا من فرنسا .

ويتعهد الطرفان بتطبيق نظام دستوري في سورية ((ضامن لحقوق الاهلين السياسية ومثبت للحريات المكتسبة سابقا ومطابق لامانيهم المتضمنة انشاء حكومة مسؤولة امام البرلمان .))

ويعترف فيصل للحكومة الفرنسية بحق الاولوية التامة ((بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقدم الوطنيون يطلبون هذه المشروعات لحسبهم على أن لا تكون اسماؤهم معارة الى رأسماليين اجانب)) .

تعهد الدولة السورية الى ممثلي فرنسا وقناصلها في الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجية .

يعترف فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي . وستعين الحدود بين البلدين في مؤتمر الصلح فيما بعد .

ـ واخيرا يعترف الطرفان المتعاقدان باللغة العربية كلغة رسمية لادارة المدارس ، أما اللغة الفرنسية فتدرس بصورة اجبارية ممتازة .

وهكذا تقلص حكم الحسين بن علي وأوشك انيضمحل .. فبعد ان كان يشمل مملكة عربية تمتد من جبال طوروس الى البحر العربي اصبح عبارة عن دويلة صغيرةالرقعة ، ولكانالامر محتملا لو ان هذه الدويلة تركت مستقلة ...

فكيف قبل فيصل بابرام هذا الاتفاق مع الفرنسيين والتنازل لهم عن كل شيء تقريبا اللهم الا عن كرسي يقام له في دمشق ويسمى عرشا .. على سبيل التجاوز ؟..

ويقول قائل : ولكنه كان مغلوبا على امره .. فقد غدر به حلفاؤه وحاكوا ضده المؤامرات ، ووضعوه امام الامر الواقع ، وهم اقوياء وهو ضعيف ، لا طاقة له بقتالهم او الصمود في وجههم .. فخير له ، والحال هكذا ، ان يقبل بالنذر اليسير لينفذ ما يمكن انقاذه .. ولو كان الشكليات على الاقل ..

ولكن التاريخ لا يقبل بمثل هذه المبررات الواهية ، وابطال التاريخ العظام ، المؤمنون بحقاممهمبالحياةوالحريةوالاستقلاله لا يساومون ولا يتنازلون ، امام ضغط أو تهديد او وعيد .. مهما كانوا ضعافا وكان خصمهم قويا .. والتاريخ حافل ، في هذه الفترة بالذات ، بامثلة ساطعة ... مصطفى كمال في تركيا .. البولونيون ... وغيرهم كثير .

ولقد اثبتت الوقائع فيما بعد انه لم يكن لفيصل غنى عن امتشاق الحسام والوقوف في وجه هؤلاء الذين ابرم معهم مثل هذا الاتفاق المخزي فاستهانوا بأمره ، واستصغروا شانه ، ولم يترددوا في ضربه عسكريا ليستخلصوا من يده النذر اليسير الذي ابقوه له منة وتكرما ! !.

ولكن فيصلا كان يريد عرشا في دمشق ، سواء لديه أكان هذا العرش يحكم دمشق او ينفذ أوامر المستعمرين .. وقد تنازل عن كل شيء كي يحقق حلمه المعسول وحلم ابيه من قبله ، ولكن هذا التنازل بالذات هو الذي اضاع له عرشه فيما بعد .. ولو كان وقف غير هذا الموقف ، وجار يطلب حق وطنه بالحرية والاستقلال ، بعد ان دفع قسطه في الحرب ، ولو انه ابدى استعداده للقتال حتى الموت ، دفاعا عن هذا الحق الساطع ، لو انه فعل ذلك ، فلربما كان تغير وجه التاريخ ...

***

وعاد فيصل الى دمشق يحمل المشروع العتيد ، وكانت عودته في كانون الثاني ١٩٢٠ ، وعرض المشروع الممسوخ على زعماء الحركة الوطنية في سورية **فرفضوه رفضا باتا قاطعا ، وقاموا ينشرون ضده دعاية عريضة في البلاد ...** وبالرغم من أن فيصلا كان واثقا من انه **اذا فشل مشروعه هذا فلن يتم اي اتفاق بينه وبين الفرنسيين بعدها ،** بالرغم من ثقتـه بذلك ، وتمسكه بالمشروع الذي يعتبر السبيل الوحيد الى العـرش ،

لم يجرؤ على فرضه فرضا واتخاذ التدابير الصارمة بحق المعارضين ، ويروى عنه انه قال لبعض الانهزاميين من بطانته ، الذين نصحوه باستعمال الشدة لقمع المعارضة : ((**اني لا اريد أن ابني ملكي على الجماجم**)) وكان جوابه هذا تلميحا الى كلمة شهيرة كان يرددها جمال السفاح : ((**لا تبنى الممالك الا على الجماجم**)) ...

وهكذا فشل مشروع ((فيصل ـ كليمانصو)) .. تحطم على صخرة الروح الوطنية والوعي العربي اللذين ابداهما رجالات البلاد ، تحطم على صخرة ((القومية العربية)) الصامدة .. هذه القومية التي تجلت ، في تلك الايام العصيبة ، بشكل رائع بليغ ، ان دل على شيء فعلى اصالة هذه القومية في نفوس ابناء العروبة ....

اجل ، لقد رفض زعماء البلاد مشروع العبودية والاستعمار المسمى مشروع فيصل ـ كليمانصو ، فكانت أول وقفة مجيدة تقفها القومية العربية في وجه الاستعمار الغربي الزاحف على هذا الشرق .. رفضه زعماء البلاد وقبل فيصل رفضهم على مضض ، لأنه يريد عرشا أما هم فلا يريدون سوى الاستقلال والحرية ...

كان فيصل مقتنعا ، كما قلنا ، بأن الفرنسيين غير مستعدين لابرام اتفاقية افضل من تلك التي ابرمها مع كليمانصو ، ويروى ان كليمانصو قال لفيصل بعد ابرام العقد المشؤوم : ((**انك لن تجد مسؤولا فرنسيا قط يمنحك ما منحتك اياه ..**))

لقد نسي فيصل يومذاك .. ان الاستقلال لا يمنح ابدا ..

*.**

ورأى فيصل ان يعقد مؤتمرا سمي « بالمؤتمر السوري » ، وقرر هذا المؤتمر ، ووافق فيصل ، على ان يرد الى انكلترا وفرنسا التحية بأحسن منها ... فأعلن استقلال سورية وفلسطين ساحلا وداخلا والمناداة بالامير فيصل ملكا على البلاد، كما اعلن المؤتمر دستورا يتضمن اعلان نظام ملكي دستوري ..

وفي اليوم السابع من آذار ١٩٢٠ نشر المؤتمر السوري قرارا يعلن فيه اختيار الامير فيصل ملكا على سورية باسم فيصل الاول ، وقد تلي هذا القرار من على شرفة البلدية المطلة على ساحة المرجة بدمشق من قبل امين سر المؤتمر السيد عزة دروزة .

ومما جاء في هذا القرار فقرات تصور بجلاء روح القومية العربية المتفجرة في الصدور :

« ان الامة العربية ذات المجد القديم ، والمدنية الزاهرة ، لم تقم جمعياتها واحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ، ولم ترق دماء شهدائها الاحرار ، وتثر على حكومة الاتراك الا طلبا للاستقلال التام ، والحياة الحرة، بصفتها امة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق بأن تحكم نفسها بنفسها اسوة بالشعوب الاخرى التي لا تزيد عنها مدنية أو رقيا » ..

وفي مكان آخر من البيان :

« ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك ، كانت الاسباب المستند اليها اعلان استقلال القطر العراقي وبما ان بين القطرين صلات وروابط لغوية وتاريخية واقتصادية وطبيعية وجنسية ، تجعل كلاً من القطرين لا يستغني عن الآخر ، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي استقلالا تاما على ان يكون بين القطرين الشقيقين اتحاد سياسي واقتصادي » .

وكان اليوم الثامن من آذار يوماً مشهودا في دمشق اذ جرت حفلة رسمية كبرى في قصر البلدية بالعاصمة تلي فيها قرار المؤتمر السوري ونودي بالامير فيصل ملكا على سورية المستقلة .

وتألفت أول حكومة في ظل النظام الملكي الجديد برئاسة رضا الركابي وقد دام حكمها من اليوم الثامن من آذار ١٩٢٠ حتى الثالث من ايار من السنة نفسها . اما سبب سقوطها فالاخبار التي تواترت عن مؤتمر سان ريمو (بايطاليا) الذي عقده الحلفاء في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ وأقر وضع البلاد العربية تحت الانتداب على أن يكون العراق وفلسطين وشرقي الاردن تحت الانتداب البريطاني ، وسورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، **فأحدث هذا الخبر دويا هائلا بين صفوف الشعب الذي هب يطالب بحكومة قوية تكون على مستوى الاحداث الجسام التي تنتظر البلاد** .. ولما كان رضا الركابي من القائلين

بالاعتدال وجد نفسه مضطرا الى الاستقالة تحت ضغط الشعب فسقطت وزارته وشكلت وزارة جديدة برئاسة هاشم الاتاسي وقد اضيف اليها وزيران جديدان هما الدكتور عبد الرحمن الشهبندر للخارجية ويوسف العظمة للدفاع ..

وهكذا يعطي الشعب العربي في سورية دليلا جديدا على وعيه وتحفزه ومراقبته للاحداث الدولية وما قد ينجم عنها من اخطار تهدد مستقبل استقلاله وحريته وقوميته .. مرة اخرى خلال هذه الفترة القصيرة العصيبة الحاسمة ، تبرز روح القومية العربية الكامنة في صدور ابناء الشعب لتفرض ارادتها على الحكام وتستبعد منهم من كان يقول بالاعتدال ويدعو الى سياسة مجاملة المستعمرين او مساومتهم او النزول عند رغباتهم الجشعة ..

ان الشعب العربي بروحه القومية ، الذي ارغم فيصل على رفض مشروعه الاستعماري الذي وقعه ورضي به وبنى عليه الآمال العراض ، هو الذي فرض ارادته على رضا الركابي فاخرجه لياتي بمن هو اقوى منه واقدر على مجابهة الحوادث الجسام المقبلة ، التي دله عليها حدسه الصائب واحساسه بالخطر ، هذا الحدس والاحساس اللذان قلما يخطئا عند الشعب الواعي .

***

كان الجنرال غورو ـ الذي قلد الامير فيصل وسام الشرف العسكري في فرنسا ـ قد عين مفوضا ساميا لفرنسا في بيروت

خلفا لجورج بيكو ، وكان هذا القائد مشبعا بروح استعمارية لذلك كان تواقا الى دخول دمشق فاتحا وتحقيق ما عجز عنه الصليبيون اسلافه ، ولكنه كان يفتش عن مبرر لاستعمال القوة العسكرية لتغطية عدوانه فوجد هذا المبرر في تأخر جواب الحكومة السورية على انذاره كما سنرى .

ففي مساء ١٤ تموز ١٩٢٠ ارسل غورو مذكرة طويلة الى الملك فيصل يرمي بها الى وضع مسؤولية الحرب على الملك والحكومة السورية ويرفقها بانذار مدته أربعة أيام تبتدىء من الساعة ١٢ ليلا من ١٤ تموز . وتنتهي الساعة ١٢ ليلا من يوم ١٧ منه ويقضي هذا الانذار بالتسليم بالشروط الآتية :

١ ــ استلام سكة حديد رياق حلب من قبل السلطات العسكرية الفرنسية واحتلال مدينة حلب لحمايتها من الاتراك .

٢ ــ قبول الانتداب الفرنسي .

٣ ــ قبول الاوراق النقدية التي يصدرها بنك سورية ولبنان .

٤ ــ تسريح جيش الحكومة السورية .

٥ ــ معاقبة المجرمين الذين يزعجون القوات الفرنسية .

وما كان هذا الانذار يعرف في الاوساط الشعبية حتى هاج الشعب واضطرب فعرفت دمشق عدة ايام سادت فيها الفوضى ، وحدثت فيها حوادث دموية مؤسفة . أمّا موقف الملك والوزارة والمؤتمر السوري فكان موقفا حائرا مترددا ..

واخيرا قررت الوزارة السورية في جلستهـا المنعقدة في ١٧ تموز ان تشير بقبول الانذار **((لعدم امكان المقاومة ماديـا))** . فأرسل فيصل صباح ١٧ تموز كتابا الى الجنرال غورو يعلن فيه قبوله شـروط الانذار ، فتلقى يـوم ١٩ جواب الجنرال وفحواه **ان القبول لا يكفي وان المهم هو التنفيذ الذي يجب ان يبدأ قبل ١٨ منه وان يتم بكامله قبل ٣١** واضاف انه يقبـل **ان يمدد مدة الانذار ٢٤ ساعة على الا يمددها مرة اخرى** واعلن انه اذا لم يبدأ التنفيذ ، **فانه يصدر امره الى الجيش بالتحرك في ٢١ تموز عند منتصف الليل** . وهكذا نرى ان غورو أرسل انذارين الى فيصل الاول يقضي بالقبول والثـاني بالتنفيذ . فأجاب الملك في ٢٠ منه ان حكومته **بدأت بتنفيذ الانذار** ، ولكن برقية الملك لم تصل في الموعد المضروب من قبل غورو لسبب ما ، قيل انه انقطاع الخط البرقي بين دمشق وبيروت قصدا ومن قبل بعض عملاء الفرنسيين وذلك لتأخير وصول الجواب عمدا كي تتاح الفرصة لغورو فيهاجم دمشق ويدخلها دخول الفاتحين ويفرض عليها الانتداب ، وقيل فيه غير ذلك ايضا . . ومهمـا يكن من امر فان البرقية الجوابية لم تصل في موعدها ، وكانت الحكومة الفيصلية قد باشرت فعلا بتنفيـذ بنود انذار غورو فبدأت بالجيش فسرحته ، ولكن الجيش الفرنسي تحرك بقيادة الجنرال غوابيه ووجهة زحفه دمشق ، وانتشـر الخبر في العاصمة **فأخذت الحمية عددا من فلول الجيش السوري المسرح فتجمعت دون قيادة أول الامر ثم ان الحكومة اضطرت الـى**

الرضوخ للضغط الشعبي المتفاقم فتبنت الدفاع عن العاصمة ودعت الجيش المسرح فحضر منه من حضر واسندت قيادته الى وزير الحربية السورية الشهيد يوسف العظمة الذي ابت عليه وطنيته الا ان يكون في خط النار الاول وعلى روابي ميسلون التقى الجيشان ـ ... اذا جاز لنا ان نسمي تلك الفلول التي انضم اليها عدد من الاهالي بدافع الوطنية ، جيشا ... ـ وحدثت على الاثر معركة غير متكافئة لم تدم اكثر من ثلاث ساعات انتصر فيها الفرنسيون لتفوقهم الساحق بالعدد والعدد . ويقدر الجنرال بريمون في كتابه ((الحجاز في الحرب العالمية)) عدد الضحايا الفرنسيين في هذه المعركة بمائة قتيل وثلاثماية جريح ولم يعرف على التحقيق عدد الذين استشهدوا من الجيش السوري ، وقد حدثت هذه المعركة التاريخية الفاصلة في الرابع والعشرين من شهر تموز ١٩٢٠ وكان يوم سبت لا يوم اربعاء كما هو منقوش خطأ على تمثال يوسف العظمة .

دخل الجيش الفرنسي دمشق في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الاحد في ٢٥ تموز ١٩٢٠ وكان الملك فيصل قد قصد قرية الكسوة حيث الف الوزارة الجديدة ثم عاد الى دمشق فانذره الفرنسيون بالخروج منها فغادرها صباح ٢٨ تموز الى درعا .

وكانت آماله قد عقدت على الوزارة الجديدة التي الفها لتكون واسطة للتفاهم بينه وبين الفرنسيين ، وكانت هذه الوزارة

برئاسة علاء الدين الدروبي وكان من اعضائها عبد الرحمن اليوسف ، وعطا الايوبي ، وبديع المؤيد ، وجميل الالشي ، وفارس الخوري ، ويوسف الحكيم ، وجلال الدين زهدي.غير ان الفرنسيين لم يقبلوا باي تفاهم وانذروا الملك بمغادرة درعا فغادرها على اثر حادثة (خربة الغزالة) حيث قتل كل من علاء الدين الدروبي وعبد الرحمن اليوسف ، بقطار خاص قاصدا حيفا ..

وبعد احتلال الفرنسيين لدمشق ببضعة ايام اجتمع مجلس عسكري فرنسي وحكم على عدد كبير من رجالات البلاد بالاعدام ، وجرى تبليغ ذلك الى الناس بواسطة منشورات القتها الطائرات . ومن هؤلاء الزعماء : **احمد مريود ، وشكري القوتلي ، وسعيد حيدر ، وصبحي بركات ، وعادل ارسلان ، ورياض الصلح ، واحسان الجابري ، وعوني عبد الهادي ، وتوفيق اليازجي ، وخير الدين الزركلي ، ونبيه العظمة وغيرهم ..**

ولكن حكم الاعدام لم ينفذ باحد من هؤلاء بل غادروا البلاد ثم عفي عنهم بعد مدة وجيزة فعادوا الى الوطن ..

وجدير بالذكر ان كثيرين من الفرنسيين مثل الجنرال بريمون لم يستصوبوا راي غورو باخراج الملك فيصل من سورية بل اعتقدوا انه كان من الافضل لمصلحة فرنسا نفسها ابقاء فيصل والتعاقد معه ..

وهذا الرأي مبني على ان فيصلا كان على استعداد تام

اكيد بالتعاون مع الفرنسيين الى اقصى حد بدليل تسليمه لهم بكل مطالبهم ، واستجابته لكل رغباتهم ، ثم محاولاته المتكررة التفاهم معهم ، منسجما في كل ذلك مع غايته الاولى وهدفه الاعلى وهو العرش السوري . واذا كان فيصل قد اضطر في بعض الاحيان ، الى الوقوف موقفا فيه بعض التصلب من الفرنسيين فما ذلك ، كما رأينا ، الا تحت ضغط جماهير الشعب التي كانت متحمسة لاستقلال بلدها ، مستعدة للتضحية في سبيله بكل مرتخص وغال ..

ولقد اثبتت الوقائع فشل السياسة الفيصلية المترددة التي كانت تقرر امرا في الليل لتنقضه في النهار ، ولا يبرر لهذه السياسة خطتها المساومة ، الانهزامية ، كون عدوها قويا وهي ضعيفة الامكانيات نسبيا .. فقد ثبت ان الشعب كان مؤيدا متحمسا ، وكان مستعدا للقتال والصمود ، حتى ولو دعا الامر لممارسة حرب العصابات فيما بعد ، الا أن تردد حكومته ، وخوفها ، ومساومة الحكام ، فتت في عضد الشعب ، وتركته في بلبلة وفوضى ، فلم يجد من ينظمه ويعده للساعة الفاصلة .

* * *

لم يعش العهد الفيصلي طويلا ، والسبب الرئيسي في ذلك استكلاب الفرنسيين على احتلال سورية وبسط نفوذهم عليها ، ولا سيما بعد ان اطلقت يدهم فيها على اثر اتفاق ١٥ ايلول عام ١٩١٩ الذي ابرم مع بريطانيا ... وبدهي الا تستطيع سورية الناشئة ان تقف ــ عسكريا ــ أمام اقوى دولة عسكرية

في العالم آنئذ .. وقد عزمت هـذه الدولة على تحكيم القوة المسلحة .. فـكان ان قضت على هـذا الاستقلال بالحديد والنـار ..

ولكن الامر الآخر الذي تجدر الاشارة اليه هو ان الشعب السوري كان على درجة عظيمة من الحماسة والاندفاع للذود عن حياض استقلال طالمـا حلم به ، ولكن الحكومة لم تعرف – وهي لا تجهل ما يبيت لهـا منذ زمن بعيـد – كيف تهيء الشعب وتنظمه وتعده الاعداد الحسن للساعة الحرجة .. اما فيصل فكان ، كما قلنا ، يريد انقاذ ما يمكن انقاذه ، شريطة ان يكون له عرش دمشق .. أما الاستقلال فيبدو انه لم يكن شرطه الاول ولا حتى الاخير للبقاء في دمشق .

اضف الى كل ذلك ان الجنرال غورو الذي يمثل العقلية الاستعمارية الفرنسية اصدق تمثيل ، لم يكن مستعدا لانصاف الحلول ..

* * *

وهكذا فرض الانتداب الفرنسي على سورية بقوة السلاح .

ونظرية الانتداب انبثقت عن المـادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الامم التي تنص على ان قسمًا من الجماعات التي كانت ترضخ للسلطنة العثمانية لم تبلغ بعد المستوى الكافي من النضوج السياسي يؤهلها لأن تكون دولا مستقلة استقلالا كاملا ولذا فان العصبة تنتدب دولة من الدولة الكبرى تسترشد بها

تلك الشعوب في ادارتهـا وتساعدها بالنصائح الى ان تصبح قادرة على ادارة امورها بنفسها ويتحتم اعتبار رغبات هـذه الشعوب في اختيار الدولة المنتدبة .

غير ان الانتداب ، الذي يفهم منه انه ارشـاد ومساعدة ، طبق تطبيقا جعله لا يختلف عن الاستعمار الا بالاسم ، بل ان صك الانتداب الذي فرضته فرنسا على سورية سنة ١٩٢٢ قد خالف منطوق هذه المادة مخالفة صريحة فقد حرم البلاد من انشاء جيش وطني أو تمثيل خارجي ومنح الدولة المنتدبة حق التدخل في القضاء والتعليم والشؤون المالية بل وتقسيم البلاد الى دويلات صغيرة محلية . وحتى هذا الصك لم يطبق تطبيقا صحيحا اذ ان فرنسا قد تجاوزته فجزات سورية الى دويلات مستقلة كل الاستقلال وتدخلت في ادارتها الداخليـة واوقافهـا .

والغريب ان فرنسا قد شرعت تتصرف بشؤون سورية على هواها فور استتباب الامر لها وقبل أن تعهد اليها عصبة الامم رسميا بالانتداب على سورية .

والواقع ان نظام الانتداب اخترعته فرنسا وانكلترا تغطية لمراميهما الاستعمارية بعد ان سبق لرجالاتهما وصرحوا مرارا وتكرارا ، خلال الحرب العالمية باعطاء الشعوب الحق في تقرير مصيرها ..

ولقد عرف نهرو الانتداب تعريفا جميلا قائلا ان وضع

بلاد ضعيفة تحت اشراف دولة كبرى كحراسة الذئب للغنم .

والاغرب من كل ذلك ان ثلاثا من الدويلات التي جزءهـا غورو وهي لبنان ودولة العلويين ودولة جبل الدروز قد حكمت بصورة مباشرة من قبل حاكم فرنسي ، اما دولتا دمشق وحلب فقد حكمتا من قبل سوريين معينين بأمـر المفوض السامي الفرنسي .

لقد فرض الانتداب على سورية بقوة السلاح كما رأينا ، الا ان الشعب لم يهدأ ولم يركن ، فقد هـاله ان تنهار احلامه بالحرية والاستقلال بمثل هذه السرعة المذهلة ، وقد استفاق فعلا على حقيقة مريعة : لقد تخلص من استعمار بغيض ليقع في براثن استعمار ابشع وافظع .. فها الفرنسيون يبسطون على البلاد حكما مرتكزا الى القوة العسكرية الغازية ، ويتصرفون بمقدراتها تصرف المالك بملكه والسيد بعبده .. بل انهم عمدوا الى تقسيم البلاد دويلات صغيرة يدير بعضها حكام فرنسيون ، الامر الذي لم يفعله الاتراك ، فكان حكمهم استعماريا مباشرا كما كان حكم الاتراك بل اقسى . ولم يطل ذهول الشعب العربي في سورية ، فما ان استفاق تماما على الحقيقة المؤلمة حتى بدأ بجمع فلوله ، وتنظيم صفوفه ، ويستعد لمعركة طويلة لا يعرف كم تدوم ، ولكنه مصمم على خوضها حتى النهاية ، عازم على دفع ضريبة الحرية والاستقلال دما وعرقا ودمعـا ، فتاهب للوقوف بامكانياته الضئيلة في وجه مستعمره على ما لديه من قوة مادية ساحقة ...

ما ينوف على ربع قرن لم يهنئوا فيه باقامتهم سنة واحدة ، وهذا ما حدث فعلا .. فلقد أقام الفرنسيون مستعمرين فكانوا ابدا وكأنهم في أرض عدوة ، لا يعرفون متى وأين تنفجر الثورة في وجوههم ، وقد ادركوا بعد لأي ان هذا الشعب الصغير المناضل لن يستكين مهما ثقلت الوطأة عليه ولن يحني جبهته أمام المستعمر الغشوم مهما افتن هذا المستعمر في الترهيب أو الترغيب ..

وهكذا كان .. وامتاز عهد الانتداب بالاضطراب الدائم ، فالثورات لاتنقطع ، ولا تهدأ هنا الا لتنشب هناك ، والشعب لا يأمن جانب الفرنسيين ولا يتعاون معهم ما خلا فئة قليلة ضعف فيها الشعور القومي ، ومات الضمير الوطني فباعت هذه المآثر بمصالح زائلة أو مغانم حقيرة .. الا ان هذه الفئات المأجورة الخائنة كانت اضال شأنا من أن تذكر ، واهون امرا من ان تحسب على الشعب العربي في سورية ..

وفي أول الامر كبت السوريون آلامهم وعضوا على النواجز تحت وطأة الاحتلال العسكري القاسي بانتظار الفرصة المناسبة ، وقد تهيأت هذه الفرصة عندما جاء مستر تشارلس كراين رئيس اللجنة الامريكية الاستفتائية سابقا كزائر عادي الى دمشق في ١ نيسان سنة ١٩٢٢ فأثار مجيؤه في الشعب ذكرى استقلالهم وعاطفة العرفان بالجميل نحو هذا الرجل النبيل فبدأت حركة نستطيع أن نسميها بحث فاتحة الحركة الوطنية في البلاد بعد الاحتلال الفرنسي ، وكان الذين قاموا بها أول

من تجرأ على تحدي الاحتلال العسكري يوم كان الموت مصلتا على رؤوس الناس ، فكانوا بذلك أصحاب الصرخة الاولى في عهد الانتداب . وقد تزعم هذه الحركة **الدكتور عبد الرحمن الشهبندر** يشد أزره كل من **حسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور خالد الخطيب** ، وقد بدأت الحركة بأن قام هؤلاء بدعوة الناس للاجتماع بمستر كراين للاعراب له عن نفرة السوريين من هذا الانتداب الجائر وبثه الشكوى من سوء الحكم والادارة وحدثت يوم وداع كراين في ٦ نيسان ١٩٢٢ مظاهرة كبرى اشترك فيها النساء والرجال وألقى الدكتور شهبندر خطابا حماسيا صادقا مودعا المستر كراين ومذكرا له بما راى كي يكون اصدق شاهد على ألم الشعب العربي في سورية .

ولم يكد مستر كراين يغادر البلاد حتى قبضت السلطة الافرنسية على رؤساء الحركة ، فاعتقلت الدكتور شهبندر وحسن الحكيم وسعيد حيدر والدكتور خالد الخطيب وغيرهم وزجتهم في السجن فقامت مدينة دمشق وقعدت لهذا النبأ وأغلقت احتجاجا عليه طيلة اسبوع كامل ثم حوكم هؤلاء أمام محكمة عسكرية افرنسية فلم تخفهم هيبتها ولا ما قد ينتظرهم من سوء المصير فجاهروا بآرائهم الاستقلالية امامها دون وجل .

وقد تولى الدفاع عن المتهمين كبار المحامين الوطنيين مثل جلال زهدي وزير العدلية السابق وفارس الخوري وزير المالية السابق ونقيب المحامين ، سعيد محاسن ، والياس نمور وكانت

النتيجة ان حكمت المحكمة عليهم بالاحكام الآتية :

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر بالسجن عشرين سنة .

حسن الحكيم بالسجن عشر سنوات .

سعيد حيدر : ١٥ سنة .

خالد الخطيب : ١٠ سنوات .

محمد مكي العفيفي : ٢٠ سنة .

توفيق الحلبي : ٥ سنوات .

منير شيخ الارض : ١٠ سنوات .

ثم ابعد المعتقلون الى جزيرة ارواد وسجنوا في قلعتها حيث قضوا ثمانية عشر شهرا عفي عنهم بعدها ..

* * *

استبدل الجنرال غورو بالجنرال ويغاند وكان هذا الاخير كسلفه من حيث النزعة الاستعمارية والعنجهية العسكرية . وقد حاول استرضاء الشعب باحداث الاتحاد السوري عام ١٩٢٢ بين دولة دمشق وحلب والعلويين وترأس هذا الاتحاد احد الذين اشتركوا في العهد الفيصلي وهو صبحي بركات ، ولكن هذا الاتحاد الغي سنة ١٩٢٤ واصدر الجنرال ويغاند قرارا يقضي بأن تتحد دولتا دمشق وحلب فقط ابتداء من كانون الثاني ١٩٢٥ وتؤلفان دولة واحدة تسمى دولة سورية .

ولكن جميع هذه الالاعيب لم تجد نفعا ولم تخفف نقمة

الشعب العربي في سورية على مستعمريه ، فكانت الثورة في صدره ما تزال كامنة كالنار تحت الرماد .

وفي عام ١٩٢٤ شكل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر أول حزب سياسي يعمل لاستقلال البلاد ضم جميع العاملين في القضية الوطنية دعاه حزب الشعب . وقد كان مقدرا لهذا الحزب المنظم على غرار الاحزاب الاوربية أن يعيش طويلا وان يلعب دورا هاما في مختلف المجالات الوطنية ، ولكن الثورة السورية وما نجم عنها من تشتيت اعضائه ، واضطرار زعيمه وكبار الاعضاء للاقامة خارج البلاد حال دون ذلك .

* * *

لم تكن الثورة السورية الكبرى أول ثورة يقوم بها الشعب العربي في سورية ضد الحكم الفرنسي ، فقد سبقتها ثورتان الاولى قامت في بلاد العلويين وكان على رأسها الشيخ صالح العلي عام ١٩١٩ وقد امدتها الحكومة الفيصلية بالمال والسلاح ودامت ما يقرب من سنتين ، والثورة الثانية هي التي قام بها ابراهيم هنانو وكان مركزها جبل الزاوية وقد نشبت عام ١٩٢٠ على أثر دخول الافرنسيين سورية ودامت ما يقرب من السنة ثم اضطر هنانو الى اللجوء الى شرق الاردن وبعد مضي مدة وجيزة سلمته السلطة الانكليزية الى الفرنسيين فحوكم وبريء . ولقد كانت هاتان الثورتان تعبيرا بليغا عن استقبال الشعب العربي في سورية للمستعمرين بمظاهر السخط والكراهية ،

الا انهما لم تؤتيا ثمارهما لاسباب عديدة أهمها انهما لم تكونا منظمتين التنظيم الكافي كما ان الاتصال والتعاون بين كافة المناطق السورية لم يتم بحيث تعم الثورة البلاد فتنشغل القوات المحتلة في كل مكان ، وتتوحد قيادتها ويسير النضال فيها في خطة مرسومة .. وهذا ما توفر بعضه في الثورة الكبرى فكانت ، الى حد ما ، اجدى نفعا من سابقتيها ..

نشبت الثورة السورية في عهد الجنرال سراي الذي خلف الجنرال ويغاند في أوائل عام ١٩٢٥ ، وقد كان هذا المفوض السامي الجديد على خلاف سلفيه ، ذا نزعة حرة وتمسك بمباديء الثورة الفرنسية الكبرى ، الا انه كان ينقصه الدهاء والحكمة والحنكة السياسية . فلم يلبث أن خضع لتأثير بطانته التي لم تكن مخلصة في توجيهه وارشاده .

بدات الثورة أول ما بدأت في جبل الدروز فكانت انتفاضة حقيقية ضد سياسة الحاكم الفرنسي الكابتين كاربيه الذي تمشى على خطة التنكيل والاضطهاد فكان يهين الناس ويضربهم ويفرض عليهم الغرامات ، سياسة تذكر بأقسى الاساليب الاستعمارية . وقبل اشتعال الثورة **اجتمع زعماء الدروز بزعماء الحركة الوطنية في دمشق ، في منزل الدكتور شهبندر ، في الثامن من تموز ١٩٢٥ ، فاكد لهم الدكتور الشهبندر باسم حزب الشعب انه لن يدخر وسعا في مساعدتهم وشد أزرهم .**

وانطلقت الشرارة الاولى عندما قام مندوب المفوض السامي شوفلر باعتقال عدد من زعماء الدروز وهم في طريقهم الى بيروت.

لمقابلة الجنرال سراي بدعوة منه وقد علق أحد النواب الفرنسيين على هذه الحادثة بقوله : انه من العار ان يلجأ ممثل فرنسا الى هذه الطريقة التي لا تليق حتى بزعماء العصابات وقطاع الطرق .

كانت أول معركة دارت في الجبل انتصارا عظيما للثوار ، وهي معركة (الكفر) التي جرت في تموز ١٩٢٥ ، قتل فيها ما يقرب من ٣٠٠ جندي فرنسي في عدادهم قائد الحملة الكابتين نورمان ، أما من المجاهدين فقد استشهد اربعون مقاتلا منهم مصطفى الاطرش شقيق سلطان الاطرش . وامام هذه الهزيمة النكراء جهزت السلطة الفرنسية حملة جرارة قوامها نيف وخمسة آلاف جندي ، على راسها الجنرال ميشو ، زحفت على الجبل لاخضاع الثورة ولكنها كانت كارثة عسكرية ضخمة على الفرنسيين . فقد التقت الحملة بالثوار بالقرب من (المزرعة) في آب ١٩٢٥ فدارت رحى معركة ضارية بين الفريقين استبسل فيها الثوار وابدوا من ضروب الشجاعة المدهشات ، فدارت الدائرة على ميشو وحملته فكسر شر كسرة ولم يسلم من جنوده الخمسة الاف أكثر من ألف مقاتل ... غير ان الخطأ الفادح الذي ارتكبه الثوار هو انهم لم يلاحقوا فلول الحملة التي تقهقرت عائدة الى دمشق ، ويجمع المؤرخون على انهم لو فعلوا وواصلوا زحفهم لاحتلوا دمشق واجلوا الفرنسيين عنها .

وعلى أثر حملة المزرعة الفاشلة ، جهز الفرنسيون حملة اخرى لا تقل ضخامة عن سابقتها كان قوامها جنود السنغال

والفرقة الاجنبية ، فالتقت بالثوار في (المسيفرة) في ايلول من العام نفسه فنشبت معركة حامية الا انها لم تأت بنتائج حاسمة رغم العدد الكبير من القتلى الذي سقط من الفريقين .

اما زعماء الحركة الوطنية في دمشق فقد عقدوا اجتماعا في مساء اليوم العشرين من آب ١٩٢٥ في منزل الحاج عثمان الشرباتي بدمشق وقرروا الاشتراك في الثورة كما سبق ووعدوا زعماء الدروز ، ثم انهم دعوا الناس لحمل السلاح واتخاذ الغوطة ميدانا للثورة ، وقد نجم عن هذا العمل اجبار الفرنسيين على الجلاء عن جبل الدروز كله عندما اضطروا للقتال في جبهتين .

وتمركزت القوات الفرنسية التي جلت عن الجبل في دمشق ، فهاجمهم رجال الثورة في قلب المدينة ، فأمر الجنرال سراي بضرب المدينة بالمدافع وذلك في ١٨ تشرين اول ١٩٢٥ ، ففتحت النار على المدينة خلال اربع وعشرين ساعة متواصلة فدكت جانبا من قصورها التاريخية ودورها الفخمة واسواقها الاثرية ، واشتعلت النيران في بعض أسواقها فالتهمتها فسميت تلك المنطقة ((الحريقة)) وما تزال تعرف بهذا الاسم حتى اليوم ..

كانت نكبة دمشق نكبة عظيمة ريع لها العالم العربي باسره وطار صداها في انحاء العالم جمعاء .. ويقدر عدد الدور التي هدمت من جراء قصف المدفعية باكثر من ٦٠٠ دار ، وقد

احتج ممثلو الدول الاجنبية في دمشق للجنرال سراي على هذا الحادث الوحشي الفظيع ..

ولم تستطع وحشية الفرنسيين هذه أن تخمد روح الثورة الوطنية في نفوس الشعب فتجددت المعارك في الغوطة ثم انتقلت الي النبك وراشيا ، وقد ارتكب الفرنسيون خلال هذه الثورة أعمالا مريعة ، كقتل الابرياء وانتهاك الحرمات ، ونهب الاموال والتمثيل بجثث الضحايا وعرضها في ساحة المرجة على انظار المواطنين .. الا ان كل هذه الجرائم الوحشية لم تفت في عضد الثوار ولم تلن من قناتهم .. فاستمروا يواقعون الفرنسيين ويفتكون بهم حيثما وجدوهم ، وقد اسندت القيادة العامة للثورة في الغوطة الى القائد العسكري مصطفي وصفي ، وممن لمع فيها المجاهد حسن الخراط الذي كان شخصا عاديا ولكنه متاجج حماسة ووطنية .

وفي ٤ تشرين الاول من السنة نفسها اعلن ضابط سوري يعمل في الجيش الفرنسي هو **فوزي القاوقجي** الثورة في مدينة حماه ، فهاجم الثكنات ودار الحكومة ، الا ان وصول النجدات الفرنسية اضطرهم الى الانسحاب من المدينة بعد معركة دامية خسر فيها الفرنسيون حوالي ٤٠٠ قتيل كما استشهد من الثوار ٣٥ رجلا **وبدأت تباشير النجاح تسفر بعد المعارك الضارية المتعددة .. فقويت معنويات الثوار وازدادوا تنظيما وتنسيقا للخطط والاعمال .. وتجددت الآمال في صدور الشعب العربي في سورية ورأى أن ساعة الفرج قد دنت ..**

فهب يساعد الثورة بكل مـا يملك لا تضن بمـال أو بدم ..
وأدرك الفرنسيون خطورة موقفهم ، وشعروا بأن زمام الامور لن يلبث حتى يفلت من يدهم .. فبادروا باستقدام النجدات العسكرية الضخمة من فرنسا بالذات ، كما انه ، في هذا الوقت فشلت ثورة الامير عبد الكريم فيمراكش ، فنقلت فرنسا جميع قواتها الموجودة هنـاك الى سورية وبذلك ادركت تفوقا كبيرا على الثوار بالعدد والعـدد .. **اضف الى ذلك ان السيـاسة الدولية قد لعبت دورها في التآمر على الثورة ..** فبعد ان كان الانكليز ، بدافع تناحرهم السياسي مع الفرنسيين ، يعطفون على الثورة ويغضون الطرف على امدادها بالسلاح والمال والرجال عبر شرقي الاردن وفلسطين ، اضطروا ، أمام ضغط السياسة الفرنسية عليهم ، الى التخلي عن ذلك واغلاق الحدود في وجه المجاهدين من عرب شرقي الاردن وفلسطين من الوصول الى سورية ..

كل هذه العوامل أدت الى اخفاق الثورة بعد ان سجـل الشعب العربي في سورية صفحة لامعة تنطق بما انطوى عليه هذا الشعب من اصالة عربية واباء وشمم وحب للتضحية في سبيل استقلاله وقوميته وكرامته ..

* * *

وبعد الثورة ادرك الفرنسيون ان هـذا الشعب الابي لن يستكين لنيرهم بسهولة فحاولوا استرضاءه بالتساهل معه

حيال بعض امانيه الوطنية زعما منهم انه يرضي بالفتات من الحرية .. الا ان الوقائع لم تلبث أن أثبتت لهم خطل رأيهم . وعرفت البـلاد ، خلال هـذه الفترة التي امتدت نيفا وعشر سنوات ، نوعا عجيبا من التخبط السياسي والاداري ، فقـد استبدل الجنرال سراي بدوجوفنيل وهو وزير سابق وعضو في مجلس الشيوخ الفرنسي ، ذلك ان الثورة كانت ، في رأيهم، رمزا لفشل سياسة القادة العسكريين ، فكان دي‌جوفنيل اول مفوض سـامي مدني . وقد حاول هـذا المندوب اقامة حكم دستوري في البـلاد بل انه ذهب ابعد من ذلك فألف حكومة برئاسة **الداماد أحمـد نامي بك** دخل فيها لاول مرة ثلاثة من الوطنيين هم **فارس الخـوري للمعـارف وحسني البـرازي للداخلية ولطفي الحفار للزراعة** ، ثم انه اتفق مع هذه الحكومة على برنامج عرف ببرنامج **الداماد ـ دي‌جوفنيل وينص على استبدال الانتداب بمعاهدة مدتها ثلاثون عاما تقوم على اساس استقلال سورية وعدم معارضة فرنسا في الوحدة بين اجـزاء البـلاد** ، وقد غادر دي‌جوفنيل سـورية في شهر ايار ١٩٢٦ وحاول اقناع وزارة الخارجية الفرنسية بمشروعه ولكنه فشل في ذلك فرفض العودة وعين مكانه مفوض سام مدني أيضا هو بونسو .

واقال بونسو حكومة الداماد وشكل حكومة جديدة برئاسة **الشيخ تاج الـدين الحسني** ثم دعا البـلاد لانتخاب جمعيـة تأسيسية لوضع دستور جديد وبعد الانتخابات التي فاز فيها

الزعماء الوطنيون افتتحت الجمعية التأسيسية في دمشق وانتخب هاشم الاتاسي لرآستها ، ثم الفت لجنة لوضع الدستور رأسها **فوزي الغزي** ، فتم وضعه في ١١٥ مادة ونص على أن يكون **شكل الحكم جمهوريا** ، ولم يكن هذا الدستور ليختلف عن ارقى دساتير الامم الا بحصر رئاسة الجمهورية بالمسلمين .

ولكن المفوض السامي الفرنسي طلب حذف ست مواد من هذا الدستور وهي المواد الهامة التي تنص على استقلال البلاد وعلى حق الحكومة السورية بالتمثيل الخارجي وتكوين جيش سوري وحق رئيس الجمهورية باعلان الاحكام العرفية وغيرها ..

ورفضت الجمعية هذا الطلب فأصدر المفوض السامي قرارا بتأجيل انعقادها ثلاثة أشهر ثم ثلاثة اشهر اخرى واخيرا امر بحلها نهائيا .. وفي عهد هذه الجمعية التأسيسية اطلق الوطنيون على نفسهم اسم « الكتلة الوطنية » **وسموا رئيس** الجمعية التأسيسية هاشم الاتاسي رئيسا **للكتلة الوطنية** ، وهذا الحزب هو الذي تسلم مهمة الكفاح السلبي حتى عقد معاهدة ١٩٣٦ ثم تسلم القيادة الايجابية حتى ١٩٣٩

غير ان المفوض السامي عاد فنشر الدستور بعد ان اضاف اليه مادة جديدة هي المادة ١١٦ التي عطلت مفعول معظم المواد الاخرى وكان نشر الدستور في ١٤ ايار سنة ١٩٣٠ ، وبنفس التاريخ نشر « دستور دولة لبنان الكبير » ودستورين آخرين : دستور حكومة اللاذقية ، ودستور حكومة السويداء ، وجدير بالذكر انها هذه هي المرة الاولى التي يبدل فيها اسم هاتين

المنطقتين من ((دولة)) الى ((حكومة)) فبعد أن كانتا تدعيان ((دولة العلويين)) و ((دولة جبل الدروز)) اصبحتا مجرد حكومتين وبذلك زالت عنهما الصفة الدولية واعتبر سكانهما سوريين ، ولكنهما بقيتا ، عمليا ، منفصلتين عن سورية .

وهكذا كانت فرنسا تضطر ، بين الفينة والاخرى ، الى اجراء التعديلات التي تقرب البلاد ، ولو بخطوات بطيئة ، من الاستقلال والحكم الذاتي .. وذلك تحت الضغط الشعبي المتزايد يوما بعد يوم ، الا ان هذه التعديلات لم تكن لترضي الشعب وزعماءه فهو لا يرضى عن الاستقلال التام الناجز بديلا ، وقد صمم متابعة الكفاح حتى يحقق الاستقلال المأمول .

وفي كانون الاول ١٩٣١ اقال بونسو حكومة الشيخ تاج الدين الحسني واعلن انتهاء الوضع الموقت والمباشرة بتنفيذ الدستور ، ودعا البلاد الى انتخاب مجلس نيابي ، ولكن الانتخابات توقفت في ثلاث مناطق بسبب الاضطرابات التي نجمت عن تدخل السلطات الفرنسية في حرية الانتخاب وقد قام الشعب يوم ٢٠ كانون الاول عام ١٩٣١ بتحطيم صناديق الاقتراع وسقط عدة شهداء برصاص الفرنسيين فتوقفت الانتخابات ثم استؤنفت في نيسان ١٩٣٢ ، واسفرت عن فوز الكتلة الوطنية بستة مقاعد ومرشحي السلطة المنتدبة بأربعة في دمشق ..

واجتمع المجلس النيابي في ١١ جزيران ١٩٣٢ ولم يزد فيه عدد نواب الوطنيين عن سبعة من أصل سبعين وقد تم في هذه الجلسة انتخاب محمد علي العابد رئيسا للجمهورية السورية .

وصبحي بركات لرئاسة المجلس النيـابي وشكلت على الاثـر وزارة برئاسة حقي العظم دخلها اثنان من أعضاء الكتلة الوطنية هما جميل مردم بك ومظهر رسلان .

وفي تشرين الثـاني ١٩٣٣ عرض المفوض السامي الكونت دي مارتيل الذي اتى خلفا لبونسو مشروع معاهدة وافقت عليه الحكومة السورية بعد ان انسحب منها عضوا الكتلة الوطنية ولكن المجلس النيابي رفض المشروع بعد ان ابدى الرأي العام سخطا شديدا على هذه المعاهدة ، الامر الذي أدى الى تعطيل المجلس دورتين كاملتين ثم الى أجل غير مسمى .

وعاد الشيخ تاج الدين الحسني لتسلم رئاسة الحكم ثانية عام ١٩٣٤ ولكن هذا الوضع لم يدم أكثر من سنتين اذ حدثت في أواخر عام ١٩٣٥ اضطرابات شديدة واقفلت المدن السورية متاجرهـا طيلة خمسين يوما فاضطر الكونت دي مارتيل الى اقالة الحكومة الحسنية واتفق مع الكتلة الوطنية لارسال وفد مفاوض الى باريس للمفاوضة مباشرة مع الحكومة الفرنسية فقصدها هـذا الوفد المؤلف برئاسة هـاشم الاتاسي وفارس الخوري وسعد الله الجابري وجميل مردم ومصطفى الشهابي وأدمون حمصي وقد صحب الوفد احمد اللحام بصفته خبيرا عسكريا ونعيم الانطاكي أمينا للسر .

اقام الوفد عدة اشهر في باريس وقد سـاعدته الظروف على تحقيق مهمته اذ في ذلك الحين جرت انتخابات في فرنسا وفاز الحزب الاشتراكي ، فعقد الوفد مـع رئيس الحكومة

ليون بلوم معاهدة عرفت « بمعاهدة ١٩٣٦ » نصت على استقلال سورية ووحدة اجزائها ، وزوال الانتداب وانتقال سلطاته الى الحكومة السورية تدريجيا ، كما نصت على ابرام اتفاق عسكري بين الدولتين له صفة الاتفاق الدفاعي ، كما نصت المعاهدة على ان مدتها ٢٥ سنة . كما انه تم ابرام اتفاق عسكري يسهل للحكومة السورية استلام الجيش المعروف « بجيوش الشرق » كما تتعهد الحكومة الفرنسية بتقديم كل التسهيلات الممكنة لتدريب الجيش السوري وتزويده بالسلاح والعتاد .

وخلاصة هذه المعاهدة وملحقاتها والبروتوكولات التابعة لها :

١ ـ حسناتها : آ ـ الغاء الانتداب والاعتراف باستقلال سورية ودخولها عضوا في عصبة الامم .

ب ـ ايجاد نواة للجيش السوري والتمثيل الخارجي .

ج ـ ضم منطقتي العلويين والدروز الى سورية .

٢ ـ اما سيئاتها فاكثر وهي : آ ـ اعتراف سورية للمرة الاولى بحدود الجمهورية اللبنانية الحالية وبذلك تنازلت عن الوحدة الكاملة بما كانت تدعيه من ضم طرابلس والاقضية الاربعة .

ب ـ السماح لفرنسا باستعمال جميع طرق المواصلات السورية من برية وبحرية وجوية .

ج ـ وجود حامية فرنسية في كل من منطقتي العلويين والدروز لمدة خمس سنوات .

د ـ منح فرنسا مطارين قرب دمشق وحلب .

هـ ـ ربط العملة السورية بالفرنك الفرنسي .

و ـ وجوب اخذ المستشارين والفنيين والقضاة والمدربين العسكريين من فرنسا دون سواها .

ز ـ تمثيل فرنسا للسوريين في كثير من البلاد الاجنبية.

ولقد اطنبت الكتلة الوطنية في امتداح هذه المعاهدة ومارست ضغطا شديدا على النواب الى أن أقروها .

وعلى أثر عودة الوفد من باريس جرت انتخابات عامة في البلاد فازت فيها الكتلة الوطنية فوزا تاما ، وفي ٢١ كانون الاول ١٩٣٦ اجتمع المجلس الجديد وانتخب رئيس الكتلة هاشم الاتاسي رئيسا للجمهورية .وفارس الخوري رئيسا للمجلس النيابي وعهد بتأليف الحكومة الى جميل مردم بك .

ولكن سورية لم تتمتع طويلا بالاستقلال الذي نالته بموجب معاهدة ١٩٣٦ اذ ان الجانب الفرنسي نكل عن تصديق هذه المعاهدة ، وعاد بالبلاد الى عهد الانتداب وقد حلت السلطة المجلس النيابي وعطلت الحياة الدستورية واسندت السلطة الى مجلس مديرين كما أعادت فصل منطقتي العلويين والدروز وذلك قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، في صيف ١٩٣٩ .

وهكذا تنتهي هذه الفترة من تاريخ سورية الحديث ، التي كانت مليئة بالاضطرابات والثورات والتقلبات السياسية .

وحافلة بالظلم والاضطهاد والنكول بالوعود من جانب الفرنسيين وهي ان دلت على شيء فعلى ان هذا الشعب لم يستكن ولم يهدأ خلال السنوات العشرين لأنه كان يرمي ابدا الى تحقيق هدف سام ، وغاية مثلى ، هي الاستقلال التام الناجز والتخلص من نير الاستعمار الذي فرض عليه باسم جديد ..

ان اصالة الشعب العربي في سورية هي التي كانت محرك ثوراته الاول ومحفزه ابدا الى مقارعة عدو عنيد ، ختال ، نكول ، شديد البطش ، لا تعرف الرحمة الى قلبه سبيلا ..

ب ـ مصر :

يرجع تاريخ الكفاح القومي في مصر الى أبعد منه في سورية، فقد بدأ فعلا اثناء احتلال نابليون ، وتمثل في ثورات عديدة قامت ضد الحكم الفرنسي وانتفاضات كثيرة في الارياف والاقاليم ، وكانت خاتمتها اغتيال الجنرال كليبر ، خليفة نابليون ، بخنجر سليمان الحلبي .. ويرجع هذا الكفاح ايضا الى تاريخ بدء التدخل الاجنبي في مصر في عهد الخديوي اسماعيل الذي اضطر ، على اثر تبذيره ، الى الاقتراض من المصارف والشركات الاوروبية ولما عجز عن الدفع باع حصته من اسهم قناة السويس لانكلترا ، البالغة نصف اسهم الشركة ، فبدأ التدخل الاجنبي في شؤون مصر الداخلية بحجة مراقبة الاقتصاد المصري وقد حاول اسماعيل باشا مقاومة هذا التدخل الامر الذي حدا بالحكومتين الانكليزية والفرنسية الى استصدار مرسوم من السلطان عبد الحميد بخلعه وتولية ابنه توفيق باشا

عام ١٨٧٩ وقد استسلم هذا الاخير الى الارادة الاوروبيــة فاستاء الشعب العربي في مصــر من سياسته ، وقــد ظهر الاستياء في أوساط الجيش المصري بخاصة ، فقامت العناصر الوطنية بقيادة **القائد عرابي باشا** بانقلاب رمى الى خلع الخديوي فأرسلت انكلترا وفرنسا في ايار ١٨٨٢ اسطولا مشتركا الى الاسكندرية والسويس ، وفي الاسكندرية فتحت الاساطيــل نيرانها على المواقع المصرية الحصينة فثارت ثائرة الشعب وهاجم الاحياء الاوروبية فأحرقها ، فاغتنمت انكلترا هذه الفرصــة فأنزلت جنودها الى البر في ١٥ تموز ١٨٨٢ بحجة اعادة النظام وحماية الاوروبيين .. **ولكن الشعب المصري لم يستكن وهب يؤازر عرابي باشا فنشبت ثورة عامة في القطر** ، فطلبت انكلترا من فرنسا الاشتراك معها في قمع الثورة ولكن فرنسا رفضت ، فهاجم الجيش الانكليزي الثوار والتقى الجمعان في معركــة كبرى بالقرب من (**التل الكبير**) وكان ذلك في ايلــول ١٨٨٢، وكان تفوق الانكليز بالسلاح والرجال كبيرا فاستطاعوا غلبه المصريين وتشتيت جموعهم كما ألقوا القبض على قائد الثورة عرابي وابعدوه الى جزيرة **سيشل** ، وبعد ذلك سقطت البلاد جميعها في قبضتهم فبادروا الى الغاء وظيفة المراقب الفرنسي رغم احتجاج فرنسا ، وكان هذا العمل بمثابة رد على رفض فرنسا الاشتراك معها في قمع الثورة ..

ولقد أعلن رئيس وزراء بريطانيا غلادستون في ٣ كانون الثاني ١٨٨٣ ان احتلال انكلترا لمصر هو احتلال موقت ينتهي

باعادة النظام اليها وتسديد ما عليها من ديون . وكثيرا ما كرر مسؤولون انكليز مثل هذا القول الا ان الحقيقة كانت بادية للعيان فالانكليز لا يفكرون الا في اعلان حمايتهم لمصر والسيطرة على طريق الهند وقناة السويس الا انهم اعلنوا ما اعلنوه تمويها وذرا للرماد في العيون وكي لا يثيروا غضب فرنسا وتركيا . .

وبدأ عهد احتلال استعماري اسود تجلى في سلطة غير محدودة مارسها الممثل البريطاني اللورد كرومر الذي حكم مصر حكما مباشرا من ١٨٨٣ الى ١٩٠٧ وفي عهده المشؤوم حدثت حادثة دنشواي الشهيرة في ١٩٠٦ وخلاصة الحادثة ان بعض الضباط الانكليز قصدوا قرية دنشواي بغية صيد الحمام . . فقاومهم اهالي القرية وحاولوا منعهم من صيد حمامهم فحدث صدام بين الاهالي والضباط قتل فيه واحد من هؤلاء ، فاستشاط اللورد كرومر غيظا وأمر باعلان الاحكام العرفية على القرية وتأليف محكمة عسكرية صورية حكمت على اربعة من اهالي القرية بالاعدام وجلدت ثمانية آخرين على مرأى من أهل القرية جميعا ، وكان لهذا العمل القاسي وقع سيء جدا لدى كافة المصريين كما ان الزعيم الوطني **مصطفى كامل** قام يندد بظلم الانكليز في الصحف المصرية والاجنبية . . فكانت حادثة دنشواي أول انتفاضة شعبية مصرية ضد الاحتلال الغاشم ، والذي يلفت النظر في هذه الحادثة انها وقعت عفوية لم تبيت وانها كانت من الشعب مباشرة دون ان يشرف عليها أو يحرض أي زعيم أو قائد . . فهي انتفاضة شعبية مائة بالمئة ، قام بها قرويون

سذج بسطاء أبت عليهم كرامتهم ووطنيتهم ان يساموا الظلم والاضطهاد على ايدي المستعمرين الغزاة الذين استهانوا بهم ايما استهانة فاستباحوا لانفسهم دخول قريتهم واصطياد حمامهم لمجرد التسلية ..

أما القسوة الانكليزية التي تجلت في هذه الحادثة فلا تبدر الا عن مستعمرين عتاة ورثوا عن القرون البائدة العقلية الاستعمارية البشعة التي تحل للمستعمر دم المستعمر -بفتح الميم - وماله وكرامته . واذا كان الانكليزقد زعموا انقسوتهم الوحشية هذه سوف تكبت في صدور الشعب كل ثورة ، فقد أثبتت الوقائع ان دنشواي كانت شرارة الهبت الوطنية في الصدور ، واججت روح الثورة في النفوس ، وفتحت عيني الشعب على حقيقة الاستعمار وطبائع المستعمرين ..

وعبرت الحركة الوطنية عن نفسها في مصر بظهور احزاب سياسية منظمة منها حزب الامة والحزب الوطني وكانت هذه الاحزاب تطالب بالدستور والاستقلال ولكن في ظل الحماية البريطانية ، وهنا يظهر لنا ان النهج النضالي في مصر كان غيره في سورية ، ذلك ان الشعب المصري لم يكن ، في الواقع ، ذا أثر بعيد في توجيه السياسة الحزبية الوطنية ، لأن الذين قاموا بتأسيس هذه الاحزاب ، كانوا في معظمهم من المثقفين والاعيان الذين ارادوا توجيه دفة الحكم في البلاد توجيها يوفر للبلد الاستقلال ويحفظ عليهم مصالحهم في آن واحد ، هذا من ناحية ، واما من الناحية الثانية فان هؤلاء الزعماء والقادة يدركون ما

للاستعمار الانكليزي من صفات عنيدة وما يمتاز به من ختل والتواء في أساليبه ، فكانوا يخشون هذه الصفات اذا ما هم تشددوا كثيرا في مطاليبهم بحيث يعطون الانكليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم . ومثال هذه الفكرة ما نادى به **فيلسوف حزب الامة لطفي السيد ((بعدم السماح بتدخل الشعب المتطرف بالسياسة لئلا يؤدي ذلك الى العناد والقسوة من جانب الانكليز))** .

ولقد كانت فترة ما قبل الحرب العالمية الاولى ، في الواقع ، فترة حيرة سياسية وتردد نضالي ، نظرا لعدم تبلور الفكرة القومية العربية في اذهان قادة الرأي العام في مصر ناهيك عن سواد الشعب وعامته .

وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضع حدا لهذه الحيرة والبلبلة السائدتين في مصر . فقد حزب الفرب امره وقرر أن يخضع العرب لحكمه . فبادرت انكلترا وأعلنت حمايتها الرسمية على مصر . . **وبدهي الا يسجل التاريخ ، خلال سنوات الحرب العصيبة ، أية انتفاضة وطنية في البلاد باعتبار انها كانت خاضعة خضوعا مباشرا لحكم عسكري عنيف وكانت ممرا للجيوش ومرساة للاساطيل .**

ولكن ما ان انجلت غمامة الحرب ، وخفت وطأة الاحتلال ، حتى عاد الشعب العربي في مصر يتحرك : فقد قابل المندوب البريطاني ثلاثة من زعماء الحركة الوطنية في مصر وطالبوه بأن يكون المصريون اصدقاء للانكليز صداقة الحر للحر . وكان هذا القول مثار دهشة المندوب الذي تساءل : **اذا انتم تطالبون**

الاستقلال ! فاجابه سعد زغلول : نحن له اهل ! فعاد المندوب يقول : الطفل اذا اعطي من الغذاء اكثر من حاجته اصيب بالتخمة .

فهب **عبد العزيز فهمي** يدافع عن حق مصر بالاستقلال وابدى سعد زغلول استعداد مصر لمنح بريطانيا الضمانات الكافية والسماح لها دون غيرها باحتلال منطقة القنال عند الاقتضاء وقال **علي الشعراوي** ان مصر تقبل ببقاء المستشار البريطاني للشؤون المالية :

وشرع زعماء الحركة الوطنية الذين اطلقوا على انفسهم اسم ((**الوفد المصري**)) بالسعي حيثما وجدوا الى السعي سبيلا في سبيل استقلال مصر تطبيقا لمبادىء الحرية والعدالة وتقرير المصير التي طالما نادى بها الحلفاء ومنهم انكلترا طبعا .

وتزعم هذه الحركة **سعد زغلول** وكان اذ ذاك في الثالثة والستين من عمره . ولم ينضم **سعد** الى اي من الاحزاب القائمة ولكنه لم يعاد ايا منها بل كان صديقا للجميع . واصبح سعد وزيرا رغم معارضة **اللورد كرومر** ، ولقد اظهر **سعد** حزما وعنادا في نضاله دفاعا عن حقوق بلاده حتى اصبح اسمه رمزا للوطنية المصرية المتفانية في الذود عن حقها الغصيب .

وقد اعلن **سعد** بطلان الحماية الانكليزية على مصر بعد اسبوع من اعلان مؤتمر الصلح عن حق الشعوب بتقرير مصيرها . فاعتقل سعد فكان لاعتقاله دوي مروع . فثار الشعب فبطش به

الانكليز بطشا قاسيا ، وجدير بالذكر ان المرأة المصرية نزلت ، في هذه الثورة ، الى الميدان لاول مرة ، فنظمت النساء مظاهرات صاخبة ولكن الجنود الانكليز تعرضوا لهن ورموهن بالرصاص بعد ان عجزوا عن تفريقهن ..

لقد ادهش الشعب المصري الجميع في مصر وخارجها . ذلك انه لم يخطر ببال احد ان يشترك الشعب بالنضال ، ولكن المظاهرات بدت عنيفة فور انتشار خبر اعتقال سعد . وقد كان اشتراك الشعب المصري في النضال بكافة طبقاته وفئاته فقد اضرب الموظفون واغلقت المتاجر ، وتظاهر الرجال والنساء والعمال . وتراءى للانكليز ان الامور توشك ان تفلت من ايديهم فسارعوا بالافراج عن **سعد** ولكن **سعدا** كان قد حزم امره وقرر متابعة النضال الى جانب الشعب فأعيد اعتقاله .. ولكن ذلك زاد النار اشتعالا ، فاستشرى امر الثورة وعظم خطرها واصبحت تهدد بالانتشار في انحاء البلاد كافة . فأصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير الذي اعلنت فيه **انهاء حمايتها على مصر واعلانها دولة مستقلة ذات سيادة واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق الدفاع عن مصر وحماية مواصلاتها والمصالح الاجنبية فيها ..**

واجتمع زعماء الحركة الوطنية ووضعوا دستورا لمصر على غرار الدستور البلجيكي عرف بدستور ١٩٢٣ ..

وفي اوائل ١٩٢٤ جرت اول انتخابات نيابية في مصر ، وكان يجلس على عرشها الملك **فؤاد الاول** الذي توج ملكا على مصر في تشرين الاول ١٩١٧ خلفا لشقيقه **حسين كامل** . وهو

اول من اطلق عليه لقب ملك بعد ان كان اسلافه يلقبون بالسلطان أو الخديوي .

وعلى اثر الانتخابات النيابية عهد الى سعد زغلول رئيس حزب الوفد بتأليف أول وزارة دستورية ، ولكن هذه الوزارة لم تلبث ان اضطرت للاستقالة على اثر حادثة مقتل **السردار** - أي القائد العام للجيش الانكليزي ، وظل قتلة السردار مجهولين . وبالرغم من ان حزب الوفد قد استنكر هذه الجريمة الا ان الانكليز اتهموه بتدبير المؤامرة ، وكذلك حل المجلس النيابي ، وألفت وزارة جديدة برئاسة **احمد زيور باشا** وهو من العناصر المناهضة للوفد . وفي عام ١٩٢٦ جرت انتخابات جديدة فائتلف حزب الوفد مع حزب الدستوريين الاحرار والحزب الوطني على مناهضة **زيور باشا** وبعد ان تشكل المجلس النيابي انتخب سعد **زغلول** رئيسا له وشكل الوزارة **عدلي يكن باشا** وكانت وزارة ائتلافية من الاحزاب سالفة الذكر .

وفي ٢٣ آب ١٩٢٧ توفي **سعد زغلول** فكان لوفاته رنة حزن واسى شملت العالم العربي كله لما كان لهذا الزعيم المناضل من مقام في نفوس العرب . وعلى اثر ذلك انتخب **مصطفى النحاس باشا** زعيما جديدا للوفد ورئيسا للمجلس وتعاقبت الوزارات بعد ذلك نتيجة لتنافس الاحزاب على الحكم تنافسا شغلها عن مناهضة الاحتلال الاجنبي والاستعمار الجاثم على صدر مصر وكان **الملك فؤاد** العوبة في ايدي الاحزاب والمستعمرين ، لا يستطيع سوى الانجراف في سياسة حزبية ضيقة هدفها

الاقصى اعتلاء كرسي الحكم .. وقد تميزت هذه الفترة - بين ١٩٢٨ و ١٩٣٤ - بخمود الحركة الوطنية في أوساط الشعب نتيجة للتطاحن السياسي المار ذكره الذي الهى البلاد عن كل ما عداه ، وشغل الصحافة والكتاب به .

وفي أواخر ١٩٣٤ عهد **الملك فؤاد** الى **محمود توفيق نسيم باشا** بتأليف الوزارة فحلت الوزارة الجديدة المجلس النيابي والفت الدستور الذي كان وضع سنة ١٩٣٠ ، وعادت الى دستور ١٩٢٣

وقد استمرت وزارة **نسيم باشا** في حكم البلاد حتى أواخر عام ١٩٣٦ حيث خلفتها وزارة **علي ماهر باشا** ، وفي عهد هذه الوزارة تألف وفد مفاوض قصد لندن حيث عقد معاهدة تحالف وصداقة بين مصر وبريطانيا .

وكان **الملك فؤاد** قد توفي في ٢٧ نيسان ١٩٣٦ فشكل مجلس وصاية ، عهد الى **مصطفى النحاس** بتأليف الوزارة الجديدة .

ونودي **بفاروق بن فؤاد** ملكا على مصر باسم **فاروق الاول** سنة ١٩٣٧ فأقال الوزارة النحاسية وعهد الى **محمد محمود باشا** بتأليف وزارة جديدة . وقد استمرت هذه الوزارة في الحكم الى حين نشوب الحرب العالمية الثانية ..

ويلاحظ المتتبع للسياسة المصرية منذ اعلان الدستور المصري سنة ١٩٢٣ ان ما من مجلس نيابي أكمل مدته القانونية

وهي اربع سنوات وما من مجلس اسقط وزارة قائمة بل ان الوزارات كانت هي التي تحل المجالس كما كانت تتبدل دون ان يخذلها المجلس ، وهذه الظاهرة ان دلت على شيء فعلى ان الحياة الدستورية لم تكن علي قسط كاف من النضوج ، وان الاحزاب السياسية المتناحرة هي التي كانت تسير هذه الحياة ولا تسير بموجبها . كما انها تدل على ان الملك كان ضعيفا لا يستطيع الوقوف فيوجه هذه التيارات المتصارعة في البلاد .

هـذا ولا بد من الاشارة الى ان المشتغلين بالسياسة والقضايا العامة في مصر ، خلال هذه الفترة ، كانوا من طبقات معينة هي طبقة الاعيان وطبقة المثقفين وطبقة الاغنياء ، ولذا كانوا بعيدين بأفكارهم عن الشعب لا يتفاعلون معه ولا يحتكون به ، ولعل هذا هو السبب في ان الشعب المصريظل طوال هذه السنوات ، متفرجا أو كالمتفرج .. وانتهى به الامر اخيرا الى الانصراف باهتمامه عن المسرح السياسي المصطرعة فوقه الاحزاب العديدة ، هذا بالرغم من ان هذا الشعب سبق له أن أثبت فعاليته في مضمار العمل القومي المثمر ، يوم كان الزعماء والاحزاب تتفاعل معه وتدعوه ، أو لاتدعوه ، الى الصراع ..

وكذلك انتهى الامر بالاحزاب والزعماء الى توجيه دفة السياسة نحو مصالحهم الخاصة ، ومآربهم الشخصية ، دون الالتفات ــ الا غرارا ــ الىمصلحة الشعب الذي اعتبروه غريبا عن قضايا السياسة العليا ..

ولا ندري مندوحة من تسجيل هذه السابقة الخطيرة على

السياسة الحزبية المصرية في تلك الفترة ، ذلك انها تركت أثرا مؤسفا عميقـا في نفوس الشعب حتى أوشكت ان تقتـل فيه الحمية القومية والاندفاع الوطني الذيبرهن سابقا عن وجوده في اعماق نفسه اكثر من مرة . والواقع ان هـذه الحمية قد عرفت الهجوع ولكنها لم تمت ، بدليل انه عندما اتيح للشعب العربي في مصر قيادة متجاوبة معه ، وزعماء من ابنائه البررة ، استجاب لندائهم ونفض عنـه خموله وهجوعه ، وهب يقف بجانبهم كمـا وقف في ثوراته العديدة السابقة ، بل انه أعطى العالم امثلة في البطولة خالدة على الدهر ...

ويلاحظ الدارس المدقق ان ثمة اكثر من وجه للشبه بين حالة سورية في هذه الفترة وحالة مصر ، فكلتا البلدين العربيين كانا في صراع مع الاستعمار صـراع عنيف وكفاح مـرير ، ابتغاء لحريتيهما واستقلالهما ، وان صفحات تاريخ الدولتين في هذه الفترة ـ فترة ما بين الحربين ـ مبللة بالدماء الذكية ، دمـاء شهداء سقطوا في الثورات المسلحة أو في المظاهرات الدامية .

ففي ١٩١٩ قامت ثورة في مصر ، وقامت ثورتان في سورية (هنانو ـ وصـالح العلي) ثم قامت الثورة السورية الكبرى سنة ١٩٢٥ هذا فضلا عن المظاهرات الكثيرة الدامية في كلتـا البلدين والاضطرابات التي لا تحصى وكان الهدف واحـد .. والغاية واحـدة : الا وهما الحرية والاستقلال والتخلص من ربقة الاجنبي المحتل ونيره الثقيل .

وكانت النتيجة ، في نهـاية هـذه الفترة النضـالية ، ان

استطاعت كل من سورية ومصر الحصول على قسط غير قليل من الاستقلال ، وما تلك المعاهدات التي عقدت بين البلدين العربيين والدولتين المستعمرتين فرنسا وانكلترا ، الا ثمرة هذا الكفاح الدامي الطويل الذي لم يدخر فيه الشعب دما ولا دمعا ولا عرقا ..

وجدير بالذكر ان الدافع الذي حدا بالشعب الى هذا الكفاح المرير كان ابدا تلك الروح الوثابة الكامنة في أعماقه الا وهي القومية العربية .

الفصل الخامس

الكفاح العربي بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥ ـ ١٩٥٦)

كانت فترة الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) فترة همود بالنسبة للحركة الوطنية في سورية ومصر كما كان الشأن في فترة الحرب العالمية الاولى مرد ذلك الى عوامل عديدة منها ظروف الحرب القاهرة ، ووطأة الاحتلال العسكري الاجنبي واضطرار البلدان الصغيرة الى السير في خط سياسي تفرضه عليها مقتضيات الحرب والظروف الخاصة بالدول الكبرى المحتلة ..

واذا كانت سورية قد تعرضت أثناء الحرب لبعض التغيرات السياسية فما ذلك الا رغبة من الدول الحليفة التي احتلتها بعدم حدوث اضطرابات سياسية تعوق المجهود الحربي .. وسنرى تفصيل ذلك .

اما في مصر فان فترة الحرب كانت شبيهة بذلك الى حد ما ...

سورية :

قلنا في الفصل السابق ان سورية لم تتمتع طويلا بالاستقلال الذي ظفرت به بموجب معاهدة ١٩٣٦ ، وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية اقدمت فرنسا ، على عادتها في استغلال الظروف

العصيبة لممارسة استعمارها بشدة وصرامة ، اقدمت على تعطيل الحياة الدستورية في البلاد فحلت المجلس النيابي واقالت الحكومة والفت حكومة مديرين برئاسة زكي الخطيب ، واخذت تدير البلاد بشكل مباشر بقرارات وقوانين يصدرها المفوض السامي متذرعا بظروف الحرب وقد استمرت هذه الحال خريف ١٩٣٩ وشتاء وربيع ١٩٤٠ ، الى ان سقطت فرنسا واحتلها الالمان وتألفت حكومة فيشي الموالية للغزاة النازيين ، وفي هذه الفترة ارسلت حكومة فيشي لجنة المانية ايطالية الى سورية لتتعاون في ادارتها مع المفوض السامي ، وأوشكت البلاد ان تسقط في براثن الاستعمار النازي لولا ان هاجمها الجيشان البريطاني والفرنسي الحر التابع لقيادة الجنرال ديغول ، واثناء الزحف الحليف على سورية اصدر **الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة في ٨ حزيران ١٩٤١ بيانا القي بواسطة الطائرات بانهاء الانتداب وبالاعتراف بسورية دولة مستقلة ذات سيادة وقد ضمنت بريطانيا العظمى هذا الاستقلال بلسان السير مايلزلمبسون ((اللورد كيلرن الآن)) سفيرها في مصر سابقا** . كما ايد ذلك **المستر تشرشل** رئيس الوزارة البريطانية آنئذ بتصريح القاه في مجلس العموم البريطاني ، واعترفت اثر ذلك ، وبصورة متتابعة ، الدول الحليفة والدول العربية بهذا الاستقلال . ونظرا لتعذر اجراء انتخابات نيابية بسبب ظروف الحرب ، فقد عهد الجنرال كاترو ، باسم فرنسا الحرة الى الشيخ تاج الدين الحسني برئاسة الدولة ولقب

رئيسا للجمهورية السورية وقد الف الوزارة حسن الحكيم وفي السابع والعشرين من شهر ايلول عام ١٩٤١ ايد الجنرال كاترو هذا التصريح وهذا الاعتراف بالاستقلال ، بكتاب ارسله الى رئيس الجمهورية السورية وبخطاب رسمي القاه في مهرجان الاستقلال في دار الحكومة .

ولا بد لنا من ان نسجل هنا للحكومة السورية في هذه الفترة حسن صنيعها ، وتعقلها وحكمتها في ادارة دفة الحكم في تلك الظروف العصيبة الجهمة ، فقد استطاعت أن تنتزع من الفرنسيين بعض الاماني القومية كالحاق منطقتي العلويين والدروز بسورية . وفي ١٩٤٣ جرت انتخابات عامة في البلاد وانتخب المجلس المنبثق عنها زعيم الحركة الوطنية في تلك الفترة شكري القوتلي ، رئيسا للجمهورية السورية . وقد اضطرت السلطات الفرنسية الى تسليم اكثر الصلاحيات الى الحكومة السورية ولكن الفرنسيين كانوا يبيتون امرا ويخفون سرا ، وينتظرون انتهاء الحرب لينكثوا بوعودهم ويخلفوا عهودهم ويعودوا سيرتهم الاولى في استعمار البلاد . وما وضعت الحرب أوزارها ، وتشكلت هيئة الامم المتحدة ، حتى انتمت اليها سورية وأصبحت عضوا لها من الحقوق مثل ما لفرنسا . ولكن هذا الوضع لم يرق لفرنسا ، فقد انتهزت السلطات الفرنسية مناسبة تافهة هي اصطدام بعض الاهلين ، أثناء الاحتفال بأعياد النصر في دمشق ، بالجنود الفرنسيين ، فأمرت بفتح النار على الاهلين فسقط عدد من القتلى والجرحى ،

وفي مساء التاسع والعشرين من شهر ايار ١٩٤٥ ضربت السلطة الفرنسية دمشق بالقنابل والمدافع وانتهكت حرمة المجلس النيابي السوري وهدمت جانبا منه بعد ان قتل جنود السنغال حراسه ومثلوا بجثثهم تمثيلا شنيعا ولم يتوقف الضرب الذي استمر يومين وثلاث ليال الا بتدخل الجيش البريطاني . وهكذا تكون دمشق قد ضربت مرتين بالمدافع خلال عشرين سنة ، على يد المستعمرين الفرنسيين المجرمين.

وبما انه لم يبق من متممات الاستقلال سوى جلاء الجيوش الاجنبية عن الاراضي السورية ، وقد كان وجودها لضرورة حربية ، فقد رفعت الحكومة السورية قضيتها الى مجلس الامن الذي أقر مبدأ الجلاء بأسرع ما يمكن ، وقد تحقق ذلك في منتصف شهر نيسان ١٩٤٦ واعتبر يوم ١٧ نيسان ــ عيد الجلاء ــ عيدا قوميا .

ولا يسع المرء الا أن يتساءل كيف اقدم الفرنسيون على ركوب رأسهم وفتح نيرانهم على دمشق بعد كل الذي كان من أمر استقلال سورية واعتراف الدول الاجنبية بهذا الاستقلال وقبول سورية عضوا في هيئة الامم المتحدة ؟ وهل كان الفرنسيون يأملون حقا بان في مقدورهم استعمار البلاد بالحديد والنار والغاء كل ما نالته من حقوق وطنية بفضل جهادها الطويل ، هل كانوا يظنون ان عنصر الزمن لم يزل بجانبهم كما كان خلال فترة الانتداب ، يوم كان مفوضهم السامي يلغي ، بجرة قلم ، استقلال البلاد ، ويعطل ، بأمر اداري ، الحياة

النيابية ، ويحل الوزارات ويقيل رؤساء الجمهورية ؟ بل هل كان الفرنسيون يتصورون ان مجرد فتح نار مدافعهم على دمشق المجاهدة البطلة كاف لرفع الرايات البيض فوق قببها ومآذنها ، وانهم يستطيعون بهذا الاسلوب الوحشي البربري أن يخضعوا البلاد لحكمهم كما حدث سنة ١٩٢٥ ؟

ان العقلية الاستعمارية المتشبعة بها رؤوس فرنسية مسئولة كثيرة هي التي جعلت الفرنسيين يعيشون في أوهام القرون الخوالي ، ويتصورون ان فرنسا ما زالت ، كما كانت بعيد الحرب العالمية الاولى ، اقوى دولة عسكرية في العالم .. وان الشعب العربي في سورية ما انفك كما كان ، بعيد تلك الحرب ، مفكك الاوصال ضعيف الوعي الوطني ، منقسما على ذاته ...

لقد أقام الفرنسيون في سورية خمسا وعشرين سنة حاولوا خلالها بشتى الوسائل والاساليب ، التي تتراوح بين المجاملة والتملق والقصف بالمدافع ، حاولوا محو الصبغة الوطنية العربية عن هذه البلاد ، وقتل الروح القومية العربية النامية ، في صدور الشعب ، شاءوا ان يفرضوا على البلاد لغتهم وتاريخهم ومدنيتهم فاذا بالاجيال الصاعدة تتعلم لغتهم لتحاربهم بها ، وتدرس تاريخهم لتتعلم منه العناد في الدفاع عن الحقوق الوطنية ، والتفاني في سبيل رفع شأن القومية ، ولا سيما بتلك الدروس المستوحاة من الثورة الفرنسية الكبرى التي علمت الانسان حقوق الانسان ، وعلمته العدالة والمساواة

والحرية ... ولم تبهر مدنية الفرنسيين ابصار الشعب العربي في سورية بل انه عرف كيف يأخذ منها اللباب ويترك القشور .

وبكل هذا فرض السوريون احترامهم على الفرنسيين .. الذين لم يلبثوا ان أدركوا ان هذا الشعب غير ما ظنوا وما املوا . فهو عنيد في حقه ، ومتفان في الذود عن حياضه ، لا يستكين ولا يرضخ ، ما دام يشعر بالنير الثقيل يهد منكبيه ...

ورغم كل ذلك عاد الفرنسيون سيرتهم الاولى وتناسوا دورة الفلك .. فكان ذلك وبالا عليهم وعلى سياستهم الخرقاء الرعناء ..

وقد راعهم وقوف الشعب العربي في سورية صفا واحدا أمام مؤامراتهم البربرية ، راعهم هذا الوقوف لانهم كانوا يأملون بأن يحصدوا ، في هذه الساعة الحرجة ، ما افنوا خمسا وعشرين سنة في ذرعه في تربة هذا الوطن المجيد من بذور الشقاق والطائفية البغيضة والعنعنات الحزبية الخائنة ..

راعهم أن يقف الشعب بجميع طوائفه وفئاته وطبقاته واحزابه ، صفا واحدا متراصا ، يفتح صدره لتلقي رصاصهم المجرم ، وصوته يجأر بالموت للمستعمرين .

واسقط في يد الفرنسيين عندما رأوا ان الرأي العام العالمي واقف هو الآخر في صف الشعب العربي في سورية ، هذا الشعب الصغير الباسل ، الذي ابى أن يهزأ به المستعمرون كما هزأوا في اعقاب الحرب العالمية الاولى ...

ولم يردع الفرنسيين عن غيهم ، ما كان من حسن استقبال الشعب لهم ايام محنتهم ، ايام جاءوا البلاد حفاة عراة لولا فتات موائد الانكليز .. يوم كانوا طريدين شريدين في أرض الله ، وطنهم راكع امام الجحافل النازية الفازية ، وكرامتهم الوطنية مداسة تحت اقدام هتلر ...

لم يردعهم عن غيهم. ان السوريين قد آووهم واطعموهم من خيرات هذا البلد الطيب ، وامنوهم من خوف ، وابوا ان يحركوا اي ساكن ضدهم أثناء نكبتهم ، يوم كانوا محصورين في هذا الوطن والاعداء يحدقون بهم من كل جانب فقبل دخول الجيشين الانكليزي والفرنسي ، أي بين حزيران ١٩٤٠ وحزيران ١٩٤١ ، كانت السلطة الفرنسية في سورية عبارة عن اشخاص معدودين لا يملكون جيشا فرنسيا بالمعنى الصحيح ، انما كان هناك جيش الشرق المؤلف في معظمه من عناصر وطنية سورية ولبنانية ، ولا عبرة في ان قيادته كانت فرنسية ، لأنه لم يكن اسهل من شق عصا الطاعة في تلك الايام على هذه القيادة وطرد الضباط الفرنسيين أو اعتقالهم ، ولكن عناصر الجيش والشعب لم يقدموا على طعن هؤلاء المشردين في الظهر ، لا عن تخاذل أو خوف ، لأن عناصر الجيش لم تكن متخاذلة بدليل انتفاضتها على الفرنسيين سنة ١٩٤٥ ، ولا عن خوف لأن الفرنسيين ما كانوا ليخيفوا احدا في تلك الايام ..

- انما هو الخلق العربي الكريم ، الذي يدعو الى العفو عند المقدرة ، وعدم الانقضاض على العدو وهو مغلول اليدين ..

ورغـم كل ذلك لم يحفظ الفـرنسيون للسـوريين حسن صنيعهم ، كما لم يحفظوا لعـرب افريقيا الشمالية التي آوت ديغول وعصبته يوم عز عليهم المأوى .

وفي حوادث أيار ١٩٤٥ ظهر تناحر السياستين البريطانية والفرنسية جليا واضحا فيهذه البقعة من الشرق مرة اخرى .

فقـد دخل الجيش البريطاني للفصـل بين الفـرنسيين المحـاصرين في ثكناتهم والقوى الوطنية التي كانت تزداد قوة يوما اثر يو موبعد هذا التدخل وقف اطلاق النار بين الفريقين وعرض الامر على مجلس الامن ..

وكان منـدوب سـورية هو فارس الخوري الذي سجل مواقف جريئة في مطالبته بحق وطنه في الحرية والاستقلال ..

واخـيرا قام الجيش البريطاني بالاشـراف على ترحيـل الفرنسيينمن كافة المدنالسورية خوفا من نقمة الشعب عليهم وفتكه بهم ..

وهكذا حققت سورية ، للمرة الاولى في تاريخها الحديث ، استقلالا كاملا غير منقوص ، وقفزتمن مصاف الدول المنتدب عليها الى مركز دولي مرموق ...

ومضت البـلاد بعد الجلاء تشق طريقها في كافة الميادين العمرانية والاقتصادية والسياسية والقومية ، فكانت سورية الدولة العربية الاولى التي استقلت استقلالا كاملا ناجـزا ثم تلاها لبنان ..

غير ان كارثة فلسطين ومـا ادت اليـه من اثر عميق في نفوس الشعب ، وما تبعها من هزات سياسية ، قلبت أوضاع البلاد رأسا على عقب كما سيأتي تفصيل ذلك باسهاب في الجزء الثاني من هذا الكتاب ...

* * *

قلنا ان اثر كارثة فلسطين كان عميقا بعيد الغور في ضمير الشعب العربي في سورية وقد ولد في النفوس شعورا عميقـا بالنقمة على حكامه الذين اعتبرهم مسؤولين الى حـد ما عن هذه الكارثة ، وفي سنة ١٩٤٨ قامت المظاهرات واضربت المدن السورية فترة طويلة فسقطت وزارة جميل مردم بك وتعذر على رئيس الجمهورية تشكيل وزارة ثانية مـدة طويلة جدا نظرا لدقة الوضع وتأجج روح النقمة في صـدور الشعب من جراء ضياع فلسطين وتدفق اللاجئين الذين شردتهم الصهيونية المجرمة .

وفي الثلاثين من آذار ١٩٤٩ قام القـائد العسكري الزعيم حسني الزعيم بانقلاب عسكري اطاح بالاوضاع الدستورية في البلاد واجبر رئيس الجمهورية على الاستقالة ، فوجد الشعب في هذا العمل متنفسا لما يعاني من نقمة على الاوضاع التي كانت قائمة غير ان اهـداف الانقلاب لم تلبث أن تبلورت عن نزوة شخصية عند قائده ، فأجرى استفتاء نصب نفسه على أثره رئيسا للجمهورية السورية ومنح نفسه لقب مشير غير انه اغتر

وطغى وتجبر فلم يطل به الامـر ، فقامت ضـده حركة بين الضباط بقيادة الزعيم سامي الحناوي فاعتقلته واعدمته مع رئيس وزرائه محسن البرازي ..

وعادت الاوضاع الدستورية بعـد الانقلاب على حسني الزعيـم ودعيت جمعية تأسيسية الى وضع دستور جـديد للبلاد ، وبعد الفـراغ من وضعه صوتت الجمعية التأسيسية على قلب نفسها مجلسا نيابيا ، فسبب هذا العمل استياء عند الشعب ...

وكانت حركة حسني الزعيم بادرة خطيرة وسـابقة غير محمودة العواقب فقـام سنة ١٩٥١ العقيد اديب الشيشكلي بانقلاب اول اطاح فيه بسامي الحنـاوي ومن لف لفه ، لكنه ابقى على الاوضـاع الدستورية وداب على التدخل في شؤون الحكم تدخلا سافرا الى ان تهيأت له الفرصة في كانون الثاني عام ١٩٥٢ فقام بانقلابه الثاني وسيطر على دفة الحكم في البلاد بالتعاون مع اللواء فوزي سلو الذي سمي رئيسا للدولة ..

ولم يستكن الشعب للحـكم الديكتاتوري العسكري الذي فرض عليه فرضا دون ارادته ، ولم تجد محاولات الشيشكلي في اضفاء صفة « الشعبية » على حكمه بتأليف « حركة التحرير العربي » كحزب وحيد في البلاد ..

فقد تحالفت العناصر السياسية جميعا ضد هذا الحكم وراحت تتحين الفـرص الى أن استطاعت ، بمعـاونة بعض

الضباط ، من قلب نظام الشيشكلي وعادت البلاد سيرتها الاولى من الحكم الدستوري .. وكانت مدة رئاسة هاشم الاتاسي قد اوشكت على الانتهاء ، وفي نهايتها انتخب شكري القوتلي رئيسا للجمهورية اذ فاز على منافسه خالد العظم ، وفي فترة رئاسة القوتلي الاخيرة تحقق أخطر حدث في حياة البلاد ، بل في حياة الشعوب العربية جمعاء ، الا وهو الوحدة العربية التي بدأت بين سورية ومصر ..

وقد بدأت فكرة تحقيق الوحدة اول امرها بالمناداة باتحاد فيدرالي بين البلدين يظل بابه مفتوحا لبقية البلدان العربية الاخرى .. وقد تقبل الشعب العربي في كل من سورية ومصر هذه الفكرة بمزيد من الحماسة وذلك ان الوحدة كانت أبدا مهوى فؤاد الشعب ، ومحط آماله ، ومهبط الهامه ... وما نضاله الطويل المرير الا سبيل للوصول الى هذه الواحة الوارفة الظلال .. فكيف وقد تحقق الحلم المذهب الحواشي في ظل نظام جمهوري ديموقراطي ، يسير وفق سياسة تحررية واضحة المعالم ، تدعو الى السلم في العالم ، وتقف من النزاع الدولي ، والحرب الباردة بين المعسكرين العالميين موقف الحياد الايجابي ، وعدم الانحياز .

وتحت الشعارات الجديدة التي أعلنها جمال عبد الناصر ، وتقبلتها جماهير الشعب في حماسة لا مثيل لها ، فكانت الوحدة التامة بين البلدين وقد تم اعلانها في اول شباط ١٩٥٨ وايدها استفتاء شعبي اجمع فيه المواطنون في سورية ومصر على

تأييد قيام الوحدة وانتخبوا جمال عبدالناصر رئيساللجمهورية العربية المتحدة ، وكانذلك فييوم تاريخيهو ٢٢ شباط ١٩٥٨

وهكذا كلل كفاح القومية العربية بقطفهذه الثمرة اليانعة ، وحظي بتحقيق اغلى اماني القومية العربية ، الا ان القومية العربية الظافرة لم تحقق كل هدفها ، وما يزال أمامها شوط طويل من الكفاح المرير العنيد الى أن تحقق الحلم كاملا فتتحد الدول العربية جميعا في دولة واحدة تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي ، فيعود بهـا مجد العرب الغابر ، فيتبوأوا مكانتهم المرموقة بين دول العالم ، وتصبح الدولة العربية قوة فعالة في العـالم ، بل من الدول الكبرى التي تقـرر مصـائر الانسانية وترسم خطوط مستقبل الكرة الارضية .

وتحقيق مثل هذا الحلم لم يعد من الصعوبة كما كان منذ نيف وعشرين عاما ... والفضل في كل ذلك للقومية العربية ، هـذه الفكرة الديناميكية ، التي دفعت الشعوب العربية الى نفض خمـول نسج عليهم خيـوطه قرونا طويلة ، فاذا بهـم يستفيقون كاستفاقة المـارد الجبار المنطوية جنباته على قوة فاعلة جبارة ، وعلى تراث حضاري لا يضاهيه تراث ..

مصر :

ان هـذه الفترة من تاريخ مضر لا تختلف في كثير عنها في سورية ، فقد بدأ الشعب يعي ما يدوز حوله ، ويدرك المرامي البغيدة للمؤامرات التي تحاك ضده ، يتعاون فيها حكامه من خونة وانتهازيين واقطاعيين ، مع الاجنبي لاذلاله والتحكم فيه

وابقائه خاضعا لنفوذهم واستعبادهم المستمد من نفوذ الاجنبي واستعباده الا ان فريقا من أبناء مصر الاحرار وضباطها البواسل كانوا اسبق الى قطع دابر الفساد ، ودك معاقل الرجعية والاستغلال ، عندما قاموا في ٢٢ تموز ١٩٥٢ بثورتهم المظفرة التي خلعت الملك المستهتر فاروقا الاول ، وقوضت دعائم النظام الملكي الفاسد ، وبنت في مصر اسس نهضة اجتماعية وعمرانية وسياسية حديثة تجاوب معها الشعب تجاوبا مدهشا فاذا بهذا الشعب ينفض عنه خموله واستكانته وينتصب ماردا جبارا يقول كلمته الباترة كالسيف ..

ولقد لعب في الثورة المصرية الدور الاول الضابط الشاب جمال عبد الناصر ، الذي عرف كيف يوجه دفتها بحنكة السياسي البارع ، واخلاص الزعيم الواعي ، الذي انتهج نهجا سياسيا جديدا في الشرق العربي ، الا وهو انسجام الحاكم والمواطنين ، واتخاذ الصراحة في كل ما يقول أو يفعل ، والعمل دون كلل أو ملال في سبيل خدمة الشعب ورفع مستواه ، وتحقيق الاهداف التي رسمتها الثورة .

وكانت نقطة الانطلاق الكاسحة في سياسة عبد الناصر مناداته بالقومية العربية مبدأ ، والعمل حسب روح هذه القومية على جمع شتات العرب وضم صفوفهم وتوحيد كلمتهم . ومحاربة الاستعمار بشتى أشكاله وكافة الوانه حربا لا هوادة فيها ...

وكان النجاح المدوي لعبد الناصر ولثورته اجلاء الانكليز

عن قاعدة قناة السويس بالمفاوضات تارة وبالضغط السياسي والعسكري طورا .. هذا العمل الذي عجزت عنه الحكومات المصرية المتتابعة خلال نيفا وثمانين عاما ..

ولعل ابلغ ما يصور الحالة التي كانت سائدة في مصر قبل الثورة ، والاهداف التي رمت اليها الثورة ، هي هذه الفقرات التي نوردها من كتاب « فلسفة الثورة » لجمال عبد الناصر :

يقول جمال عبد الناصر في مقدمة كتابه :

ان هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ليست محاولة لتاليف كتاب ...

ولا هي محاولة لشرح اهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها ... انما هي شيء آخر تماما ..

انها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...

انها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكي نعرف من نحن وما هو دورنا في تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا في الماضي والحاضر ، لكي نعرف في أي طريق نسير ...

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التي يجب أن نحشدها لنحقق هذه الاهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف اننا لا نعيش في جزيرة يعزلها الماء من جميع الجهات ...

هذا هو الذي قصدت اليه ..

مجرد داورية استكشاف في الميـدان الذي نحارب فيـه معركتنا الكبرى من اجل تحرير الوطن من كل الاغلال !..

جمال عبد الناصر

ثم انه يلقي نورا على مفهوم كفاح الشعوب فيقول :

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح أي شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجـرا فوق حجر ...

وكما ان كل حجر في البناء يتخذ من الحجر الذي تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث في قصص كفاح الشعوب ، كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو في نفس الوقت مقدمة لحدث مازال في ضمير الغيب ..

* * *

ولست أريد أن أدعي لنفسي مقعد استاذ التاريخ ..

ذلك آخر ما يجري به خيالي .

ومع ذلك فلو حاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، في دراسة قصة كفاح شعبنا ، فاني سوف اقول مثلا ان ثورة ٢٣ يوليو هي تحقيق للامل الذي راود شعب مصر ، منذ بدأ في العصر

الحديث يفكر في ان يكون حكمه بأيدي ابنائه ، وفي أن تكون له نفس الكلمة العليا في مصيره ..

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الامل الذي تمناه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد علي واليا على مصر ، باسم شعبها ..

وقام بمحاولة لم تحقق له الامل الذي تمناه ، يوم حاول عرابي ان يطالب بالدستور ...

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الامل الذي تمناه ، في فترة الغليان الفكري التي عاشها بين الثورة العرابية وثورة سنة ١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الاخيرة ــ ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ــ محاولة اخرى لم تحقق له الامل الذي تمناه .

وليس صحيحا ان ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التي أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك انها قامت بسبب الاسلحة الفاسدة التي راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال من ان السبب كان أزمة انتخابات نادي ضباط الجيش .

انما الامر في رايي كان ابعد من هذا واعمق اغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا ان يثوروا لانفسهم لانه قد غرر بهم في فلسطين ، أو لان الاسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم ، أو لان اعتداء وقع على كرامتهم في انتخابات نادي

ضباط الجيش ، لما كان الامر يستحق ان يكون ثورة ، ولكان اقرب الاشياء الى وصفه انه مجرد تمــرد ، حتى وان كانت الاسباب التي ادت اليه منصفة عادلة في حد ذاتها . . .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة . . .

وربما كان اكبر تأثيرا لها انها كانت تستحثنا على الاسراع في طريق الثورة ، ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بي من احداث ، وبعــد سنوات طويلة من بدء التفكير في الثورة ، ان أعود بذاكرتي واتعقب اليوم الاول الذي اكتشفت فيه بذورها في نفسي .

ان هذا اليوم أبعد في حياتي من ايام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١ ، ايام ابتداء ازمة نادي الضباط ، ففي ذلك الوقت كان تنظيم الضباط الاحرار قائمايباشرعمله ونشاطه ، بل انا لا اغالي اذا قلت ان ازمة انتخابات النادي أثارها اكثر من أي شيء آخر نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا في ذلك الوقت ان ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم ــ في حياتي ايضا ــ أبعد من بدء فضيحــة الاسلحة الفاسدة ، فقد كان تنظيم الضباط الاحرار موجودا قبلها ، وكانت منشوراتهم اول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التي قامت حول الاسلحة الفاسدة .

* * *

بل ان هذا اليوم في حياتي ابعد من يوم ١٦ مايو سنــة

١٩٤٨ ذلك اليوم الذي كان بداية حياتي في حرب فلسطين .

وحين أحاول الان ان استعرض تفاصيل تجاربنا في فلسطين أجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب في فلسطين ، ولكن احلامنا كلها كانت في مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض امامنا في خنادقه . ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركناه للذئاب ترعاه ..

وفي فلسطين كانت خلايا الضباط الاحرار تدرس وتبحث وتجتمع في الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صالح سالم وزكريا محيي الدين ، واخترقا الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا ان نحاول انقاذه ...

وكثيرا ما قلت لنفسي :

« ها نحن هنا في هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا ، دفعتنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت باقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

وحين كنت اصل الى هذا الحد من تفكيري كنت اجد خواطري تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر ، واقول لنفسي :

هذا هو وطننا هناك ، انه « فالوجة » اخرى على نطـاق اكبـير ...

ان الذي يحدث لنا هنا صورة من الذي يحدث هناك .. صورة مصغرة ..

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والاعداء ، وغرر به ... ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت باقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !

* * *

واكثر من هذا ، لم يكن الاصدقاء هم الذين تحدثوا معي عن مستقبل وطننا في فلسطين ولم تكن التجارب هي التـي اقرعت افكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الاعداء ايضا لعبوا دورهم في تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ اشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عني ضابط اسرائيلي اسمه « يردهان كوهين »، ونشرتها له جريدة « جوشن اوبزورفر » وفي هذه المقالات روى الضابط اليهودي كيف التقى بي اثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذي يطرقه جمال عبد الناصر معي دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركـة مقاومتنا السرية لهم في فلسطين وكيف استطعنا ان نجند الرأي العام في العالم وراءنا في كفاحنا ضدهم » .

* * *

ثم ان هذا اليوم ـ اليوم الذي اكتشفت فيه بذور الثورة في نفسي ـ ابعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذي كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد ان وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين ؟ » .

الحقيقة اني اعتقد ان الاستعمار يلعب بورقة واحدة في يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو انه احس ان بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأي امرأة من العاهرات . . »

وطبعا هذا حاله أو تلك عادته . . .

اما نحن ، أما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح والاحساس فيه ، فبعد ان كنت ترى الضباط لا يتكلمون الا عن الفساد واللهو . اصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس في سبيل الكرامة ، واصبحت تراهم وكلهم ندم لانهم لم يتدخلوا ـ مع ضعفهم الظاهر ـ ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب . . .

لقد حاول البعض بعد الحادث ان يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت قد فات ، اما القلوب فكلها نار وأسى . .

والواقع ان هذه الحركة . . ان هذه الطعنة ردت الروح الى بعض الاجساد ، وعرفتهم ان هناك كرامة يجب ان يستعدوا للدفاع عنها ، وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فان هذا اليوم ابعد في حياتي من الفوران الذي عشت فيه ايام كنت طالبا امشي مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ ــ وقد عاد الدستور بالفعل ــ في سنة ١٩٣٥ .. وايــام كنت أسعى مع وفود الطلبة ، الــى بيوت الزعماء نطلب منهم ان يتحدوا من اجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

انا من المؤمنين بأنه لا شيء يمكن ان يعيش في فراغ ...

حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش في فراغ ...

والحقيقة الكامنة في اعماقنا هي : ما نتصوره نحن انــه الحقيقة ، أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا اليها نفوسنا ..

نفوسنا هي الوعاء الذي يعيش فيه كل ما فينا ، وعلــى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل مــا يدخل فيــه ، حتى الحقائق .

وانا أحاول ــ بقدر ما تستطيع طاقتي البشرية ، ان امنع نفسي من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولكن الى أي حد سوف يلازمني التوفيق ؟

هذا سؤال !

وبعده أريد ان اكون منصفا لنفسي ، ومنصفا لفلسفــة الثورة ، فأتركها للتاريخ يجمع شكلها في نفسي ، وشكلها في نفوس غيري ، وشكلها في الحوادث جميعا ، ويخرج من هــذا كله بالحقيقة كاملة ...

* * *

واذن فما الذي أريد أن اتحدث عنه اذا كنت قداستبعدت كلمة « فلسفة » ؟ الواقــع ان الذي املكه في هــذا الصدد شيئان :

أولهما مشاعر اتخذت شــكل الامل المبهــم ، ثم شــكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملي ، حتى منتصف ليــل ٢٣ يوليو .

وثانيهما تجارب وضعت هذه المشاعر ، بأملها المبهــم ، وفكرتها المحددة ، وتدبيرها العملي ، موضع التنفيذ الفعلي في منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث ..

لطالما ألح على خواطري سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور ، أن ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقــا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ في العصر الحديث يفكر في أن يكون حكمه في أيدي أبنائه ، وفي ان تكون له نفس الكلمة العليا في مصيره ..

واذا كان الامر كذلك ، ولم يكن الذي حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة ؟

ولقد آمنت بالجندية طول عمري ، والجندية تجعل للجيش

واجبا واحدا ، هو ان يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل في عاصمة الوطن ، وليس على حدوده ؟.

ومرة اخرى ، دعوني انبه الى ان الهزيمة في فلسطين ، والاسلحة الفاسدة ، وازمة نادي الضباط .. لم تكن المنابع الحقيقية التي تدفق منها السيل ، لقد كانت هذه كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها ــ كما سبق أن قلت ــ لا يمكن ابدا ان تكون هي الاصل والاساس .

واذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟

قلت ان هذا السؤال طالما الح على خواطري ..

الح عليها ونحن في دور الامل والتفكير والتدبير بعد ٢٣ يوليــو .

والح عليها في مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت امامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنا لماذا يجب ان نقوم بالذي قمنا به ..

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذي يؤرق به الطاغية احلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد احلامه هو ...

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ما كنا نقوله أننا كنا نشعر شعورا يمتد الى اعماق وجودنا بأن هذا الواجب

واجبنا ، وأننا اذا لم نقم به فاننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ...

ولكني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح في خيـالي الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ...

وكانت تفاصيل هـذه التجـربة ، هي بعينها تفـاصيل الصورة .

* * *

وأنا أشهد أنه مرت علي بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيهـا نفسي وزملائي وباقي الجيش بالحماقة والجنون الذي صنعناه في ٢٣ يوليو ...

لقد كنت أتصور قبـل ٢٣ يوليو أن الامة كلهـا متحفزة متأهبة ، وانها لا تنتظر الا طليعة تقتحم امامها السور ، فتندفع الامة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ...

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لا يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشط بي أحيـانا فيخيل الي أني أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهدف الكبير ، اسمع هـذا كله ويبدو في سمعي من فرط ايمـاني به حقيقة مـادية ، وليس مجـرد تصورات خيال ...

ثم فاجأني الواقع بعد ٢٣ يوليو ...

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ...

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر ... ولكن ما أبعد الحقيقة من الخيال !

كانت الجموع التي جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر ...

وساعتها احسست وقلبي يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة ، أن مهمة الطليعة لم تنته في هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة بدأت ...

كنا في حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ...

وكنا في حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف...

وكنا في حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ..

ومن هنا وليس من أي شيء آخر ، أخذت الثورة شعارها .

* * *

ولم نكن على استعداد ...

وذهبنـا نلتمس الـراي من ذوي الـراي ، والخبرة من أصحابها ... ومن سوء حظنا لم نعثر على شيء كثير ...

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر !

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة أخرى !

ولو اطعنا كل ما سمعناه ، لقتلنا جميع الرجـال وهدمنا جميع الافكار ، ولمـا كان لنا بعدها ما نعمله الا أن نجلس بين الأشلاء والانقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالالوف ومئات الالوف ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروي لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليهـا العدل ، لكان الامر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ما كان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام ... كأن الثورة قامت لتكون سلاحا في يد الاحقاد والبغضاء !

***

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لي أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب ، واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الازمة في نفسي ، وجعلتني ألتمس لهذا كله أعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامي ــ الى حـد ما ــ الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هـذا أعطتني الجواب على السؤال الذي قلت انه طالما راودني ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذي قمنا به في ٢٣ يوليو ؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !

وأنا الآن أستطيع أن أقول اننا نعيش في ثورتين وليس في ثورة واحدة ...

ولكل شعب من شعوب الارض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية ، تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الامر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشري شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا ، وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فان التجربة الهائلة التي امتحن بها شعبنا هي أن تعيش الثورتان معا في وقت واحد ..

***

ويستطرد جمال عبد الناصر في كتابه قائلا :

وما من شك في أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأي عام قوي متحد في بلادنا ، فان الفارق بين الفرد والفرد كبير ، والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت اشكو فيه من أن الناس لايعرفون ماذا يريدون ، وأن اجماعهم لا ينعقد على طريق واحد يسيرون فيه ، ثم أدركت بعدها أنني أطلب المستحيل ، وانني أسقط من حسابي ظروف مجتمعنا . .

اننا نعيش في مجتمع لم يتبلور بعد ، وما زال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجي بعد مع باقي الشعوب التي سبقتنا على الطريق .

وأنا اعتقد دون أن اكون في ذلك متملقا لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أي مجتمع تعرض لهذه الظروف التي تعرض لهـا مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التي تدفقت علينا .. ولكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا كدنا نفقد توازننا في بعض الظروف ، ولكننا عامة ، لم نقع على الارض .

وأنا أنظر احيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الاسر التي تعيش في العاصمة .

الاب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والام سيدة منحدرة من أصل تركي .

وأبناء الاسرة في مدارس على النظام الانجليزي .

وفتياتها في مدارس على النظام الفرنسي .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

انظر الى هذا وأحس في أعماقي بفهم للحيرة التي نقاسيها وللتخبط الذي يفترسنا ، ثم أقول لنفسي :

ـ سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، انما ينبغي أن نشد أعصابنا ونتحمل فترة الانتقال .

تلك اذن هي الاصول التي انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هي الينابيع التي تجري منها أزمتنا ، فاذا أضفت الى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفا من اجلها طردنا فاروق ، من اجلها نريد تحرير بلادنا من أي جندي غريب ـ اذا أضفت هذا كله ، لخرجنا الى الافق الواسع الذي نعمل فيه ، والذي تهب عليه الرياح من كل ناحية ، وتزمجر في جنباته العواصف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الوعود ، والذي قلت انه من الظلم أن يفرض فيه علينا حكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

واذن ما هو الطريق ؟

وما هو دورنا على هذا الطريق ؟

اما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لا يزيد ولا ينقص . الحراس لمدة معينة بالذات موقوتة بأجل .

وما اشبه شعبنا الان بقافلة كان يجب ان تلزم طريقا معينا ، وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها

اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة، كل جماعة منها شردت في ناحية ، وكل فرد مضى في اتجاه . .

وما أشبه مهمتنا في هذا الوضع بدور الذي يمضي فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا اتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لي أننا نستطيع ان نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما ، وانا لا احب ان اتعلق بالاوهام .

اننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

انما كل عملنا ان نحدد معالم الطريق كما قلت ، وان نجري وراء الشاردين فنردهم الى حيث ينبغي أن يبدأوا المسير ، وان نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذي يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية انها لن تكون مهمة سهلة ، وكنت أعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطوا الوهم ، وأن يقولوا للناس ما يريد الناس ان يسمعوه !

وما اسهل الحديث الى غرائز الناس ، وما اصعب الحديث الى عقولهم !

وغرائزنا جميعا واحدة ، اما عقولنا فموضع الخلاف والتفاوت ، وكان ساسة مصر في الماضي من الذكاء بحيث ادركوا هذه الحقيقة فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها ، اما العقل فتركوه هائما على وجهه في الصحراء .

وكنا نستطيع ان نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع ان نملأ اعصاب الناس بالكلمات الكبيرة التي لا تخرج عن حد الوهم والخيال ، أو تدفعهم وراء اعمال غير منظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها اهبة ، او كنا نستطيع ان نترك اصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز ... داهية تاخذ الانجليز » .

تماما كما كان أجدادنا تبح اصواتهم ايام المماليك من كثرة هتافهم :

« يا رب يا متجلي ... اهلك العثمانلي » .

وبعدها لا شيء !

لكن أكانت تلك مهمتنا التي شاءها لنا القدر .

وما الذي كنا نستطيع ان نحققه فعلا اذا سرنا في هذا السبيل ؟

ولقد قلت في الجزء الاول من هذا الحديث ان نجاح الثورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التي تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة . وأضيف الان الى ذلك انها يجب ان تتحرر من آثار الالفاظ البراقة ، وأن تقدم على ما تتصور انه

واجبها مهما كان الثمن من شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !

والا فاننا نكون قد تخلينا عن امانة الثورة وعن واجباتها .

* * *

ذلك دورنا الذي حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر امامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذي قد ندفعه .

ولم نخطيء ابدا في فهم هذا الدور ، ولا في ادراك طبيعة الواجبات التي يلقيها علينا .

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضي ورواسبه مضينا فيها وتحملنا من اجلها كل شيء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا .

* * *

من اجل ضمان الحياة السياسية في المستقبل ذهبنا الى عدد من قادة الرأي من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم :

ـ ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن اجل ضمان الحياة الاقتصادية في المستقبل ذهبنا الى اكبر الاساتذة في مختلف نواحي الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الانتاج .

تلك حدودنا لم نتعداها :

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما كـان الثمن ، واجبنا .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوي الرأي والخبرة ، فرض لازم عليهم ، وليس لنا ان نستأثر به دونهم ، بل ان مهمتنا تقتضي ان نسعى لجمعهم من اجل مستقبل مصر ... مصر القوية المتحررة !

لقد تحدثت في الجزء الاول عن بداية الثورة في نفوسنا كافراد ، وفي نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة في تاريخ امتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو في هذه الثورة .

وفي الجزء الثاني تحدثت عن محاولات على طريق الثورة ، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء في نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضي ، او في تطلعنا المفعم بالامل الى المستقبل .
واذن فقد كان حديثي في الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا اشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن فليكن الحديث في هذه المرة عنه .

وليس هدفي أن ادخل في بحث فلسفي معقد عن الزمان والمكان ، وانما الذي لاشك فيه هو ان العالم كله ، وليس وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان .

واذا كنت اقول اننا في تصويرنا لاحوال وطننا لا نستطيع ان ننسى عنصر المكان .

وبعبارة ابسط :

نحن الان لا نستطيع ا ن نعود الى القرن العاشر ، نرتدي ملابسه التي تبدو لعيوننا غريبة مضحكة ، ونتوه في افكارنا التي تظهر امامنا اليوم اطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع ان نتصرف على اننا قطعة من الاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على اننـا جزيرة « ويك » النائية المهجورة في تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان ايضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين ان أمضي مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة أن أتجول في عالم المكان .

* * *

وثمة شيء يجب أن نتفق عليـه أولا وقبل أن نمضي في هذا الحديث ، ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسـبة لنا .

ان قال لي احد ان المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمـة التي نعيش فيها فاني اختلف معه .

وان قال لي احد ان المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنـا السياسية فاني ايضا اختلف معه .

ولو كان الامر كله محصورا في حدود عاصمتنا أو في حدود بلادنا السياسية لهان الامر ، ولاقفلنا على انفسنا كل الابواب

وعشنا في برج عاجي نحاول ان نبتعد به بقدر ما نستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التي تقتحم علينا ابواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الايام التي كانت فيها خطوط الاسلاك الشائكة التي تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر امام كل بلد من ان يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه ، وكيف يمكن ان يعيش مع غيره وكيف ... وكيف ...

ولم يعد مفر امام كل دولة من ان تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع ان تفعل فيه وما هو مجالها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الايجابي في هذا العالم المضطرب .

وأنا اجلس احيانا في غرفة مكتبي وأسرح بخواطري في نفس هذا الموضوع أسائل نفسي :

ـ ما هو دورنا الايجابي في هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذي يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟

واستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لا يهزل ، ليست هناك احداث من صنع الصدفة، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع ان ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لاندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن ان نتجاهل ان هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وان هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها .. حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام ؟

ايمكن ان نتجاهل ان هناك قارة افريقية شاء لنا القدر ان نكون فيها ، وشاء ايضا ان يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد ؟

أيمكن أن نتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لا تقربها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ .

وكما قلت مرة : ان القدر لا يهزل .

فليس عبثا أن بلدنا في جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتتشبك حياته بحياتها .

وليس عبثا ان بلدنا يقع في شمال شرق افريقيا ، ويطل من على القارة السوداء التي يدور فيها اليوم اعنف صراع بين مستعمريها البيض واهلها السود من اجل مواردها التي لا تحد .

وليس عبثا ان الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي الذي أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة ــ تراجع

الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وانقذته عندما ردت غزو المغول على اعقابه في عين جالوت .

كل هذه الحقائق اصيلة ذات جذور عميقة في حياتنا ، لا نستطيع مهما حاولنا ان ننساها أو نفر منها .

* * *

ويوضح دور القومية العربية فيقول :

وما من شك في أن الدائرة العربية هي أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الازمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا ايضا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الديني ، في حدود عواصمها ، من مكة ، الى الكوفة . . ثم الى القاهرة .

ثم جمعها الجوار في اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وانا اذكر فيما يتعلق بنفسي ان طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وانا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم

به وطنا قوميا في فلسطين ، اغتصبته ظلمـا من اصحابـه الشرعيين .

وحين كنت اسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا اخرج في حماسة ، ولماذا اغضب لهذه الارض التي لم ارها ؟ لم اكن اجد في نفسي سوى اصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيري حول هذا الموضوع لما اصبحت طالبا في الكلية الحربية أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وادرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التي جعلت منها في القرن الاخير فريسة سهلة تتخطفها انيـاب مجموعة من الوحوش الجائعة !

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الاعمدة التي تتركز عليهـا حقائقه لما بدأت ادرس وانا طالب في كلية اركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا في اعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في ارض غريبة ، وهو ليس انسياقا وراء عاطفة ، وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس .

***

وأذكر يوما ، عقب صدور قرار تقسيم فلسطين في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، عقد فيـه الضباط الاحرار اجتماعـا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة في فلسطين ، وذهبت في اليوم التالي اطرق باب بيت الحاج امين الحسيني مفتي فلسطين ،

وكان ما يزال يعيش في الزيتون ، واقول له :

ـ انكم في حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين ، وفي الجيش المصري عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع ، وهم تحت امرك في أي وقت تشاء !

وقال لي الحاج امين الحسيني انه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى ان يستأذن الحكومة المصرية قبل ان يقول شيئا .

ثم قال لي الحاج أمين :

ـ سوف اعطيك ردي بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد ايام ، وكان رده ، الرد الذي حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض !

ولم نسكت ...

وبعدها كانت مدفعية احمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبي القدس . وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الاحرار التي تحولت اليوم الى مجلس قيادة الثورة .

واذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى اسرار الضباط الاحرار .

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط فوزي القاوقجي . وكان القاوقجي يقود قوات التحرير العربية ، ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادي خطة جريئة للقيام بعمل حاسم في المعركة التي تستعد لها قوات التحرير .

وكانت الخطوط البارزة في تلك الخطة هي ان قوات التحرير العربية لا تملك طيرانا يساعدها في المعركة ويرجع النصر الى كفتها ، ولو انها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية ، لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟

ولم يتردد حسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادي ، وانما قررا ان يقوم سلاح الطيران المصري بهذه المهمة .

ولكن كيف ؟

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة ـ بما فيها سلاح الطيران ـ حذرا متيقظا!

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذمنها الى تفاصيل الخطة .

بدأت في مطار سلاح الطيران حركة عجيبة . . . وبرز فيها نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة في التدريب سرت كالحمى في نفوس عدد من الطيارين .

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر . .

يعرفون ان الطائرات وقوادها قد اعدوا ليوم تجيء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قوتهم في معركة حاسمة على الارض المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الاحوال

في مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التي اقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !

وكان ارجح الاحتمالات ان يحاكم كل طيار اشترك في هذه العملية ، وأذكر ان كثيرين كانوا قد رتبوا امورهم على ان الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ...

وكان شعورنا في اللجنة التنفيذية للضباط الاحرار . والمؤكد ان نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين في السر الكبير ، ان هذه المخاطر الجريئة لم تكن حبا في المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة في نفوسنا ، انما كانت وعيا ظاهرا لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وان نطاق سلامتنا يقضي علينا ان ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا احكام القدر ان نعيش معهم في منطقة واحدة .

* * *

ولم تتم الخطة يومها .. لأننا لم نتلق الاشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها ان تدخل الجيوش العربية كلها الحرب في فلسطين .

ولست اريد ان ادخل في تفاصيل حرب فلسطين — الان — فذلك بحث تتشعب فيه الاحاديث ، وانما يعنيني من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة ، واذن فهذه الشعوب جميعا تتشارك في شعورها وفي تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هـذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، واذن فهي جميعا ، كل منهـا في بلاده ، قد تعـرضت لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التي ساقتها الى الهزيمة ونكست راسها بالذل والعار .

ولقـد خلوت الى نفسي مـرات كثيرة في خنـادق عراق المنشية وفي جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التي كانت تقف في ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم في أكثر الاحيان .

وكنت أخرج الى الاطلال المحطمة من حولي بفعـل نيران العدو ، ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضي بي بعيدا الى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة كلها .

وكانت الصورة تبدو في ذلك الوقت واضحة أمام بصيرتي .

هذا هو المـكان الذي نقبع محاصرين فيه ، هـذه مواقع كتيبتنا ، وهـذه مواقع الكتائب الاخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا .. هي أيضا محاصرة لا تستطيع الحركة الواسعة وان بقي لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التي نتلقى منها الاوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذي تصنعه بنا نحن القابعين في منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا في السلاح وفي الوطن الكبير وفي المصلحة المشتركة وفي الدافع الذي جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه هي جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هي أيضا محاصرة .. بفعل الظروف التي كانت تحيط بها والتي كانت تحيط بحكوماتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدي اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو في مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة اخفت عنها عمدا ما يجري ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحيانا كنت اهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الارض ، فأحس انني أدافع عن بيتي وعن أولادي ، ولا تعنيني أحلامي الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ !

وكان ذلك عندما التقي في تجوالي فوق الاطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا في براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة

كانت في مثل عمر ابنتي ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسي :

ـ قد يحدث هذا لابنتي !

وكنت مؤمنا ان الذي يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث ـ وما زال احتمال حدوثه قائما ـ لأي بلد في هذه المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التي تحكمه الآن .

* * *

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك في فلسطين وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلا واحدا .

وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي .

كنت اتابع تطورات الموقف فيهـا فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق غدا ، وفي بيروت ، وفي عمان ، وفي بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي .

منطقة واحـدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل .. بل ونفس القوى المتالبة عليها جميعا !

وكان واضحا أن الاستعمار هو ابرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا أثرا من آثار الاستعمار .

فلولا ان فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطاني لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومي في فلسطين ، ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أي أمل في واقع .

وانا أكتب هذه الخواطر وامامي مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقي ، وهي المذكرات التي نشرها في كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفني فيه .

يستوقفني قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت في العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا : المانيا وبريطانيا .

اما المانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

واما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفني بعد ذلك قول وايزمان :

« ولقد حدث في المؤتمر الصهيوني السادس الذي عقدناه في سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الارض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

وانَّنا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاترسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قوميا .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة .

وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا في القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر الذي اظهر كل العطف على أمانينا في الوطن القومي .

ولكن اللجنة لم تجد في منطقة سيناء ما يفي بالغرض الذي كنا من أجله نريد الوطن القومي .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور :

ــ لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومي في أوغندا ؟

وقلت لبلفور :

ــ ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن اغفاله ، وانا واثق تمام الوثوق أننا اذا أغفلنا الجانب الروحي فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي .

ثم قلت لبلفور :

ـ ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن ، هل تقبل ؟ » .

ويستوقفني أيضا قول وايزمان :

« وعدت الى لندن في خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعي انني دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطاني في فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الامم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولي وزارة الخارجية محلّ بلفور ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا في لندن القانوني الشهير ابن كوهين ، وهو من اقدر واضعي الصيغ القانونية في العالم ، وكان ايريك فوربس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن في مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن نقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها في فلسطين قائمة على أساس الوطن القومي لليهود ، وكان نص العبارة التي كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية في فلسطين » .

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال انه يرى أن تكون كما يلي :

« والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية في فلسطين » .

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان في « التجربة والخطأ »، ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الاولى للمضاعفات التي مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها !

* * *

وأعود الى الذي كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئي ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في « الفالوجة » وبجيوشنا جميعا وبحكوماتنا في العواصم التي كنا نتلقى منها الاوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسي :

ـ ما دامت المنطقة واحدة ، واحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحدا .. والعدو واحدا مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ـ فلماذا تتشتت جهودنا ؟

ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

فقد بدات خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

واعترف اني كذلك بدات ارى العقبات الكبرى التي تسد الطريق الى الكفاح الواحد ، ولكنني بدات اومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغي أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدوالواحدنفسه .

ولقد بدأت اخيرا في اتصالات سياسية من اجل توحيد الكفاح مهما كانت وسيلته ، وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هي ان العقبة الاولى في طريقنا هي « الشك » ، وكان واضحا ان بذور هذا الشك قد بذرها في نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه لكي يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !

واذكر اني جلست في الايام الاخيرة اتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدات أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذي أقوله . . .

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى اثر الذي يقوله في وجهه ، بدل ان يحاول استكشاف اثره في أنا .

وبدات اقول له : تغلب على كل ما في نفسك من شكوك ، وقل لي كل ما في قلبك ، وانظر الى وفي عيني ولا تدروجهك .

ولست اريد بذلك ان أهون من أمر العقبات التي تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلاشك ان بعضها معقد تمتد اصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ،

ولكن المؤكد أنه يمكن مع شيء من المرونة القائمة على بعد النظر، لا على التفريط ، ايجاد الخط الذي يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

* * *

ولست اشك دقيقة ان كفاحنا الواحد يمكن ان يعود علينا وعلى شعوبنا بكل الذي نريده لها ونتمناه .

ولسوف اظل دائما اقول اننا اقوياء ولكن الكارثة الكبرى اننا لا ندرك مدى قوتنا !

اننا نخطيء في تعريف القوة ، فليست القوة ان تصرخ بصوت عال ، انما القوة ان تتصرف ايجابيا بكل ما تملك من مقوماتها .

وحين احاول ان احلل عناصر قوتنا لا اجد مفرا من ان اضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب ان تكون اول ما يدخل في الحساب .

أول هذه المصادر اننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادي ومعنوي يمكن ان يربط مجموعة من الشعوب ، وان لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت في جوها الاديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها في محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الاول .

أما المصدر الثاني فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة

العالم ، ذلك الموقع الاستراتيجي الهام الذي يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث وهو البترول الذي يعتبر عصب الحضارة المادية ، والذي بدونه تستحيل كل أدواتها — المصانع الهائلة الكبيرة لكافة انواع الانتاج ، وسائل المواصلات في البر والبحر والجو ، اسلحة الحرب سواء في ذلك الطائرات المحلقة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت اطباق الموج — تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منها حركة ... أو حياة .

وبودي لو وقفت قليلا عند البترول . فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والارقام يصلح ليكون نموذجا للمناقشة في اهمية مصادر القوة في بلادنا .

ولقد قرات اخيرا رسالة طبعتها جامعة شيكاغو عن ظروف البترول ، وبودي لو كان لكل فرد من افراد شعوبنا ان يقرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره في المعنى الكبير الكامن وراء ارقامها واحصائياتها :

* تقرر هذه الرسالة مثلا ان العمل لاستخراج بترول البلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال .

لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات في كولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا في سنة ١٩٣٦ .

وصـرفت هـذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات في فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مروره ١٥ سنة.

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليونا من الدولارات في جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت .

وكانت النتيجة الاخيرة التي قررتها هذه الرسالة في هذا الموضوع :

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في أمريكا هو ٧٨ سنتا .

وان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل الزيت في امريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وان رأس المـال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت في البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

- * أن عاصمة انتاج البترول في العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التي استنزفت آبارها وارتفع سعر الارض فيها وزادت أجور الايدي العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربية التي ما زالت آبارها بكرا ، والتي ما زالت أراضيها الشاسعة بلا ثمن ، والتي ما زالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقـد ثبت أن نصف الاحتيـاطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت أرض المنطقة العربية ، والنصف الباقي موزع بين الولايات المتحدة وروسيـا ومنطقة الـكاريبي وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحدة في اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا في الولايات المتحدة .

٢٣٠ برميلا في فنزويلا .

٤٠٠٠ برميلا في المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس في علو صوتنا حين نولول ، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالارقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقي لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التي تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة ...

* * *

هذا عن الدائرة الاولى التي لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهي الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهي دائرة القارة الافريقية ، قلت دون استفاضة ودون اسهاب : اننا لن نستطيع بحال من الاحوال – حتى لو أردنا – أن نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في أعماق أفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتي مليون من الافريقيين .

لا نستطيع لسبب هام وبدهي ، هو أننا في أفريقيا .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالي للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجي كله .

ولن نستطيع بحال من الاحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا في المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان ــ الشقيق الحبيب ــ تمتد حدوده الى أعماق أفريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة في وسطها .

والمؤكد ان أفريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مثير ، وأن الرجل الابيض الذي يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطتها ، ولن نستطيع بحال من الاحوال أن نقف أمام الذي يجري في أفريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف أظل احلم باليوم الذي أجد فيه في القاهرة معهداً ضخما لافريقيا يسعى لكشف نواحي القارة أمام عيوننا ويخلق في عقولنا وعيا أفريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الارض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

* * *

ثم تبقى الدائرة الثالثة ... الدائرة التي تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتي قلت انها دائرة اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايماني بمدى الفاعلية الايجابية التي يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامي بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء في وفاة عاهلها الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطري تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتني أقول لنفسي :

ـ يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورا طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأي فيها ، وعلماؤها في كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ، ليضعوا في هذا البرلمان الاسلامي العالمي خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين ... ولكن أقوياء ، متجردين من

المطامع ... لكن عاملين ، مستضعفين لله ... ولكن أشداء على مشاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى ... ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله في هذه الحياة.

واذكر اني قلت بعض خواطري هذه لجلالة الملك سعود ، فقال لي الملك :

ـ ان هذه هي فعلا ، الحكمة الحقيقية في الحج .

وفي الحق اني لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين أسرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في أندونيسيا ، وخمسين مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان، وأكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الاوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفييتي ، وملايين غيرهم في أرجاء الارض المتباعدة ـ حين أسرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصلية بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة .

* * *

ثم أعود الى الدور التائه الذي يبحث عن بطل يقوم به ...

ذلك هو الدور ، وتلك هي ملامحه ، وهذا هو مسرحه ...

ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به !

* * *

وهكذا أوضح لنا الرئيس عبد الناصر حقائق كثيرة عن الاوضاع الداخلية والخارجية والعربية في فترة تجلى فيها كفاح القومية العربية قويا ، واضح المعالم ، يشق طريقه في زحمة الاحداث الى الامام .. ولقد بدا لنا كذلك ، من خلال كلام عبد الناصر ، التشابه الشديد بين أوضاع كانت سائدة في سورية واخرى سائدة في مصر فالمشكلات واحدة تقريبا وحلولها واحدة قطعا .. وهكذا قدر لهذا الجيل أن يشهد حل معظم هذه المشكلات في الوحدة التي حققها كفاح القومية العربية بين مصر وسورية ... التي هي كناية عن خطوة اولى في طريق الوحدة العربية الشاملة .

الفصل السادس

رأينا في الفصول السابقة ان نضال القومية العربية كان موجها ابدا ضد القوى الاستعمارية التي كانت تبتغي ادخال هذه المنطقة الحساسة ضمن مناطق نفوذها .. بالاستعمار العسكري اولا ثم ببسط النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية يوم لم يعد الاستعمار العسكري من ذوق العصر كما يقولون .

وقد بلغ هذا النضال اوجه عندما كشر الاستعمار عن انيابه وأعلنها حربا صريحة على القومية العربية المنبثقة الكاسحة . فهو يريد بمختلف الطرق والوسائل بسط نفوذه على هذه المنطقة ليجعل منها ركيزة لسيطرته وقواعد عدوانية يحشد فيها سلاحه ومعداته فتكون المنطقة ابدا تحت رحمته . وفي هذا السبيل أوجد حلف بغداد الذي كانت غاياته ومراميه معروفة : الاستيلاء على المنطقة وضمها الى مناطق نفوذه ، الا ان مقاومة العرب في كافة اقطارهم لهذا الحلف كانت عنيدة ، ولا سيما في سورية حيث استطاع رجال الحكم فيها وقف زحف هذا الحلف على البلاد العربية فكانت سدا منيعا في وجهه ـ وسيأتي تفصيل ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب ـ .

ولقد كان لهذا الرفض اثره السيء في نفوس المستعمرين فراحوا يكيدون للبلدان العربية ولا سيما سورية ومصر ..

لانهما قادتا حركة مقاومة هذا الحلف الاستعماري ..

اضف الى ذلك الدور اللئيم الذي لعبته الصهيونية العالمية في تحريض الاستعمار على هاتين الدولتين ..

وخيل للاستعمار ان الفرصة قد حانت عندما ظهر الى الوجود مشروع السد العالي واحتاجت مصر الى تمويله ..

وقد زاد في ضغينة الاستعمار على مصر وسورية المواقف الصلبة التي وقفتها الدولتان العربيتان في وجهه ومناداتهما بالحياد الايجابي وعدم الانحياز والسعي الحثيث لتأليف كتلة ثالثة في العالم تقول بالحياد الايجابي وتقف بمعزل عن الحرب الباردة بين الشرق والغرب ..

وكان أن وعد البنك الدولي بالمساهمة بتمويل السد العالي، كما وعدت انكلترا كذلك ..

وسبق ذلك ان احتاجت مصر الى السلاح ، واحتاجت سورية لتسليح جيشها ، فطلبتاه من الغرب ، فبدأ الغرب يماطل ويلوح بشروط سياسية وعسكرية أقلها التعهد بعدم استعمال هذا السلاح ضد اسرائيل ، واقامة قواعد عسكرية في البلاد وما شاكل من شروط اخرى تمس بالاستقلال والسيادة ..

وكان طبيعيا ان تشتري الدولتان السلاح من حيث تجده .. ووجدته في الكتلة الشرقية المنافسة ، فتمت الصفقات وكانت تجارية محضة ..

وثارت ثائرة الغرب ، وفي هذه الثورة ، وعلى أثر اجتماع أقطاب الحياد الايجابي في جزيرة بريوني ، وهم جمال عبد الناصر ونهرو وتيتو ، على اثر ذلك أعلن الغرب انه لن يمول المشروع ... فكان رد جمال عبد الناصر صاعقا للغرب ايضا . فقد أعلن في مساء ٢٨ تموز ١٩٥٦ تأميم شركة قناة السويس .

وتكهرب الجو في عواصم الغرب .. وتجمعت الغيوم أثناء أشهر الصيف ولكنها لم تكن غيوم صيف فبعد عدة مؤتمرات عقدت في لندن وعدة مشاريع للتسوية عرضت ، وزيارات للقاهرة قام بها دبلوماسيون غربيون ، ظهر بعض الانفراج في الازمة وعين موعد لمؤتمر يضم الطرفين المتنازعين في سويسرا .

الا ان ما كان يحاك في الخفاء كان ادهى ...

ففي ذات يوم من آب ١٩٥٦ ، قصد بن غوريون ، رئيس وزراء اسرائيل ووزير الدفاع فيها ، فرنسا بصورة سرية محاطة بكتمان شديد ، وهناك اجتمع بغي موليه وزير خارجية فرنسا في فيللا بضواحي باريس معروفة « بفيللا كوبلاي » وفي هذا الاجتماع تم وضع خطة مجرمة آثمة للعدوان على مصر وضرب القومية العربية وتشتيت شمل العرب ، وقد تم الاتفاق على وضع خطة موحدة بأن تبدأ اسرائيل بعدوان تجد له مبررا في اعمال الفدائيين المصريين في اراضيها . وعلى أثر ذلك تتدخل فرنسا بحجة حماية قناة السويس من التدمير وتوقف الملاحة فيها ، فاذا اذعنت مصر وسلمت القناة لفرنسا انتهت المشكلة وعادت اسرائيل الى قواعدها مع الاحتفاظ ببعض المكاسب في

ايلات وقطاع غزة .. واذا قاومت مصر التدخل ضربتها فرنسا ضربة شديدة ينهار من جرائها حكم عبد الناصر وتتألف حكومة رجعية موالية للاستعمار تعيد القناة الى الشركة المنحلة ..

وهنا تتضارب الروايات . فجريدة فرانس اوبسر فاتور تقول — وهي التي فضحت اجتماع فيللاكو بلاي قبل غيرها — تقول ان الاتفاق كان مقتصرا على فرنسا واسرائيل بحيث تضعان العالم امام أمر واقع بضربة صاعقة ، أما اسرائيل فتضمن عدم تدخل الولايات المتحدة سلبيا ضد الحليفتين ، واما انكلترا فمن البدهي أن تؤيد العملية وتدعمها سياسيا لأنها السبيل الوحيد لاعادة حصتها في قناة السويس اليها .. وهكذا خيل للدولتين المتآمرتين انهما ضمنتا موافقة الغرب بقي موقف الاتحاد السوفييتي وكتلته ، وهذا ما لم يشغل بال الدولتين المتآمرتين كثيرا ، اعتقادا منهما بأن موقف الاتحاد السوفييتي وتأييده لمصر لن يكون جديا بالمعنى الصحيح ، أولا لأن خروشوف لا يرى في عبد الناصر والقومية العربية الزعيم والفكرة اللذين يمكن له عقد الآمال العراض عليهما ، وثانيا لأن الاتحاد السوفييتي لن يغامر في اي حال من الاحوال بخوض حرب حامية يعرف ان الولايات المتحدة خصمه فيها قطعا .. في سبيل أي شيء ؟ حماية القومية العربية ؟ وهي .. « ايدولوجية » معاكسة ومناهضة للايدولوجية الماركسية على خط مستقيم . ام دفاعا عن عبد الناصر ؟ وهو « الزعيم البورجوازي » القومي المتحمس الذي زج الشيوعيين في

السجون وحرم نشاط الحزب الشيوعي في مصر ؟

وهكذا بدت الخطة الفرنسية الاسرائيلية سليمة لأول وهلة ..

وتستطرد الجريدة قائلة : ولكن الحليفتين المتآمرتين في فيللا كوبلاي لم تضعا في حسابهما وزن الرأي العام العالمي ، الذي هو غير الولايات المتحدة وانكلترا والاتحاد السوفييتي طبعا ..

كما انهما لم يفطنا الى ان هذا الاسلوب ، اسلوب العدوان المسلح ، لم يعد من ذوق العصر ، لأنه بادرة خطيرة في عصر مجلس الامن وهيئة الامم .. فاذا نجح كان ذلك تهديدا لكيان المجلس والهيئة ذاتهما ..

وتضيف الجريدة ان انكلترا قد استطاعت ، بطريقة ما ، الاطلاع على ما يبيت في الخفاء ، فبادرت الى التدخل في الخطة . وكان لها رأي آخر .. رأي يستبعد استعمال القوة المسلحة وينسجم مع ذوق العصر .. فهي ترى التوصل بطرق سياسية وضغط اقتصادي و « عدوانات » اسرائيلية محدودة على الحدود العربية ، الى اسقاط نظام عبد الناصر وتهديم فكرة القومية العربية .. الا آن اصرار فرنسا واسرائيل على خطتهما اجبرا انكلترا اخيرا على الاذعان والاندماج في الخطة .. ولكنها رغم ذلك اصرت على اشياء منها :

١ ــ أن تستلم هي قيادة العمليات العسكرية .

٢ ـ ان تضع قيادتها في قبرص الخطة العامة ..

٣ ـ ان تستعمل اسلوبا جديدا في هـذه العمليات يكون مزيجا من الحـرب والسياسة .. فلا تطبق العنف الشديد الذي تشير به الخطة الفرنسية بل يقتصر الضرب على الاهداف العسكرية فقط ..

وتصدت فرنسا لهـذه الخطة تسفهها ، بل ان القيـادة الفرنسية ذهبت الى اقصى حد في التطرف .. حتى ليقال انها حاولت اقناع بريطانيا باستعمال قنبلة ذرية صغيرة تفجر في مكان ما من صحراء مصر بجوار القاهرة فينتهي كل شيء في رمشة عين وتنزل القوات المعتدية فتحتل مصر توا ... الا ان انكلترا عاندت واصرت على رأيها وهددت بفضح الخطة ومقاومتها علنـا ، والضغط على الولايات المتحدة لايقاف اسرائيل عنـد حدها .. وهنا لم يسع الفرنسيين الا الانصياع والخضوع . فسلمت القيادة الى ضابط بريطاني يعاونه أميرال فرنسي .. وحدد يوم ٢٩ تشرين الاول موعدا لهـا وهو اليوم الذي كان محددا لمؤتمر جنيف ...

وهكذا قلب المستعمرون المؤتمـر السياسي الى ميـدان حرب حقيقية ..

وبدأت اسـرائيل بتنفيذ الخطة بهجوم غـادر على مواقع الجيش المصري في سيناء وكانت قد هاجمت قبل ذلك بعدة ايام قرية قلقيلية الاردنية لتجذب الانظار الى حدود الاردن .. ورد الجيش المصري على هجوم اسـرائيل بعنف ، وانزل

بالمعتدين ضـربات شديدة كانت جديرة باعادة صوابهم اليهم والقائهم الى ما وراء حدودهم ..

وكان المفروض أن تكتسح الجيوش الاسـرائيلية سيناء وتدحر الجيش المصـري الى أن تشرف على قنـاة السويس وعندها تتوفر الحجة لتدخل فرنسا وانكلترا لحماية القناة ..

الا ان صمود الجيش المصري قلب هـذه الخطة رأسا على عقب .. الامر الذي حـدا بالدولتين الغربيتين الى الاسـراع بالتدخل بعد أن ادركتا ان الحرب بين الاسرائيليين والمصريين لن تكون في صـالح خطتهما رغـم تزويد الجيش الاسـرائيلي بالطائرات الفرنسية من طراز ميستير ومعاونة الطيارين الفرنسيين في العمليات الجوية ...

وفي ٣٠ تشرين ثان وجهت الدولتـان انذارا لمصر تطلبان فيه وقف الاعمال الحربية على بعـد عشرة كيـلو مترات من ضفتي القنال ، والسماح لقطع الاسطولين الفرنسي والبريطاني بالرسو في مدخل القناة ومخرجها بحجة حمايتها والاشـراف على تنفيذ وقف القتال ..

وأدرك قادة مصر ان وراء الانذار أمـرا مبيتا خطيرا .. وكانت لحظة حاسـمة . قلبت ميزان القتال رأسا على عقب .. وكانت خطة جريئة بارعة ..

فقد صدرت الاوامر الى الجيش المصري العامل في سيناء بالانسحاب الى ما وراء الضفة الغربية للقناة استعدادا لمواجهة

الهجوم الانكلو فرنسي المنتظر .. وبدأت عملية الانسحاب بمزيد من الدقة والانتظام فكانت الخسائر قليلة نسبيا بفضل حسن بلاء الوحدات التي كلفت بحماية هذه العملية وتغطيتها.

ورفض عبد الناصر الانذار .. واستعد لمجابهة كل الاحتمالات .. وفي اليوم التالي بدأ القصف الجوي الانكلو فرنسي .. وكان حسب الخطة البريطانية الموضوعة ، هذه الخطة التي رمت الى اضعاف الروح المعنوية عند الشعب وحمله على الانتفاض على حكومته وقلبها ..

ولكن طاش سهم المعتدين .. فالشعب قد صمد صمود الابطال الى جانب حكومته وأخذ السلاح واستعد لخوض المعركة ..

وتوالت الغارات الجوية العنيفة .. ولكن الشعب ظل صامدا ..

وثار الراي العام العالمي .. ودعي مجلس الامن الذي شله الفيتو الانكليزي ، فدعيت الجمعية العامة ..

أما الولايات المتحدة فقد ابدت عدم موافقتها بل وشجبها لهذا العدوان وجاهرت بذلك ووقفت أول الامر موقفا عنيدا رغم انشغالها بانتخابات الرئاسة التي فاز فيها ايزنهاور للمرة الثانية ..

وأما الاتحاد السوفييتي فقد ندد بالمعتدين وشجب العدوان بشدة وعنف ، ولكن الدولتين المعتديتين لم تأبها ، أول الامر

بهذا الشجب ، ولكن ما ان مضى يوم آخر حتى ارسل خروشوف بانذاره الشهير الى فرنسا وانكلترا وهنا تحتم على الولايات المتحدة الوقوف في جانب حليفتيها فصرح وزير خارجيتها انه مع شجبه للعدوان ، لا يسعه الا أن يلفت نظر السوفييت الى ان تدخلهم عسكريا في هذه القضية ، لن يكون سليم العواقب ..

وفي ٥ تشرين الثاني بدأت عمليات الانزال في منطقة القنال بعد أن كان المظليون الفرنسيون قد نزلوا في بور فؤاد في الليلة الماضية .

وقد استطاع الشعب والجيش في بور سعيد افناء الدفعات الاولى من المظليين البريطانيين الذين هبطوا قرب بحيرة التمساح ..

وسجلت بور سعيد صفحات في الجهاد خالدة على الدهر . ولم يستطع المعتدون احتلالها الا بعد ان خاضوا معارك عنيفة ضارية اشترك فيها ابناء المدينة الباسلة بشيبهم وشبانهم ، بنسائهم واطفالهم ..

وتكهرب الجو الدولي .. واحتدم النقاش في هيئة الامم ووقفت الدول الاسيوية والافريقية تشجب العدوان .. كما فعلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي .. وأخيرا اتخذت الجمعية العامة قرارا بالاكثرية يدعو الى وقف اطلاق النار فورا وانسحاب المعتدين ..

واضطرت الدولتان المعتديتان الى وقف اطلاق النار قبل وصول جيوشهما الى العباسية ..

وبدأت بعد ذلك المناورات السياسية التي افضت الى انسحاب المعتدين من منطقة القنال قبل حلول عيد الميلاد من عام ١٩٥٦

ولقد اثبتت هذه الحرب العدوانية ان القومية العربية لا تقهر بالقوة العسكرية بألفة هذه القوة ما بلغت .. فقد هب الشعب العربي في كل مكان ينادي بنصرة مصر والوقوف بجانبها بل ان سورية أوشكت أن تخوضها حربا جدية مع اسرائيل لو لم يحل دون ذلك جمال عبد الناصر بالذات كيلا تتعقد المشكلة ويجد المعتدون ذريعة لضرب سورية .. ومع ذلك فقد هاج الشعب وعمد الى تدمير انابيب البترول لقطع موارد النفط عن المعتدين وحتى في العراق الذي كان خاضعا لحكم نوري السعيد لم يسكت الشعب ولم يستكن ، وفي الاردن ولبنان وحتى في أقصى البلدان العربية خرجت المظاهرات وبدأ الاستعداد لمؤازرة الشقيقة الكبرى في محنتها ..

وعاد المعتدون صفر اليدين ، وباءت خطتهم بالفشل الذريع ..

واسرائيل لم تفد من عدوانها شيئا فقد اضطرت الى التخلي عن المناطق التي احتلتها ...

وقد تم انتصار القومية العربية يوم تم الاتفاق نهائيا على

الاقتصادي .. وفشلت المناورات السياسية ، وظلت مصر أكبر نصير لثورة الجزائر رغم أنف فرنسا .. واقيل انتوني ايدن واعتزل الحياة السياسية وتبعه موليبه بعد مدة ..

وفشل العدوان ..

أما القومية العربية فقد ازدادت قوة على قوة ..

واما عبد النـاصر فقد أصبح رائد هـذه القومية وامل الشعوب العربية غير منازع واخذت القومية العربية تنتقل من نصر الى نصر ..

الى أن التقى الشعب العربي في سورية بالشعب العربي في مصر ... واعلنت الوحدة .. الوحـدة بين البلدين التي هي نواة الوحدة العربية العتيدة .. وكانت نقطة تحول كبرى في التاريخ .. تاريخ القومية العربية المناضلة ..

فجر الوحدة :

كان هذا النبأ السعيد الذي تلقته القاهرة صباح الجمعة ١٩٥٨/١/٣٠ عيدا قوميا رائعا لم تشهد العيون مثله ..

آلاف الجماهير زخرت بهم ارض مطار الماظة في انتظـار الرئيس السوري .. وعلى طول الطريق من المطار الى القاهرة غص بالمستقبلين حتى لم يعد هناك موضع لقدم ، وقد حملوا لافتات خطت عليها عبارات الترحيب الحماسية .. « شرفتم دياركم يا مجد الديار » مرحبا بقادة العرب الاحرار،تحيا وحدة

عودة القنـاة الى اصحابهـا الشرعيين .. وفشل الحصـار مصر وسورية ، الى الامام يا قادة العرب .. انه ليوم تاريخي حقا يوم الوحدة العربية المجيدة ..

وفي الساعة العاشرة والثلث حطت طائرة الرئيس القوتلي على ارض المطار ، وكان الرئيس جمال عبد الناصر قدوصل الى المطار ليكون في استقبال ضيفه العظيم .. فعانق الرئيس جمال اخاه الرئيس القوتلي ثم توجه الرئيسان الى المنصة التي نصبت خصيصا لهما في ارض المطـار وعزفت الموسيقى السـلامين السوري والمصري وقام الرئيسان باستعراض حرس الشرف الذي اصطف لتحية الضيف الكبير ، ولازال دوي المدافع تتردد اصداؤه في جو المطار بل في جو القاهرة والفرحة بهذا اليوم. يوم النصر .. نصر العروبة .

واتجه الرئيسان الى حيث وقف كبار المستقبلين وأخـذ الرئيس القوتلي والوزراء السوريون يصافحون الوزراء المصريين اخوانهم وزملاءهم في الدولة العربية المتحدة .

ثم استقل الرئيسان السيارة معا واتخذ مرافقو الرئيس القوتلي وكبار المستقبلين مكانهم في السيارات المعدة لهم واتجه رتل السيارات في امان الله ورعايته الى القصـر الجمهـوري بالقبة بين هتاف الجماهير وحماسها البالغ .

وفي الساعة الحادية عشرة والربع وصل ركب الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر الى قصر القبة وقد صحب

الســادة الوزراء الرئيس القوتلي الى الصالون الملحق بمكتب الرئيس جمال حيث استراحوا قليلا .

واخذت جماهير الشعب تتجه نحو الجامع الازهر منـذ اعلنت الاذاعة ان الرئيسين القوتلي وعبد النـاصر سيؤديـان صلاة الجمعة فيه ..

وقد زينت المحلات التجاريـة بالاعـلام واقيمت اقواس النصـر على طول الطريق المؤدي للمسجد . واخـذت فرق الموسيقى الشعبية تعزف الحانها ابتهاجا بوصول زعماءسورية الى القاهرة لاعلان الدولة العربية الموحدة واخـذت السيارات المزودة بالميكروفونات تجوب الشوارع مشيدة بكفاح الشعبين ضد الاستعمار وجهودهما من اجل القومية العربية وتتويج الكفاح العربي باعلان الدولة العربية الموحدة .

وقد وصل ركب الرئيسين الى الجامع الازهر الشريف في الساعة الثانية عشرة ظهرا بين هتافات الجماهير التي التهب حماسها فانطلقت حناجرها بالهتاف بحيـاة زعيمي القوميـة العربية والترحيب بالقوتلي العربي المناضل ووقف الرئيسان في سيارة مكشوفة يردان تحية الجماهير . وقد ارتسمتعلى وجهيهما علامات البشر والسعادة :

وكان فضيلة الشيخ عبـد الرحمن تـاج شيخ الجـامع الازهر في استقبال الرئيسين على باب المسجد العتيقوبرفقته الوزراء وكبار رجال الدين وكان ميدان الازهر مكتظا بآلافمن ابناء الشعب الذين تهافتوا من شتى احياء القـاهرة والبـلاد

القريبة منها وامتلأ الميدان بالاعلام المصرية والسورية وكانت هناك لافتات كثيرة تمثل الاتحاد القومي في كل حي من احياء القاهرة قد كتبت عليها عبارات تؤيد وحدة العرب وترحب بالجمهورية العربية المتحدة . وبالقوتلي البطل الحر .

والقى خطبة الجمعة الشيخ احمد الشرباصي الرائد الديني لجمعية الشبان المسلمين . وكان موضوعها « الوحدة في الاسلام » .

وفي الخطبة الثانية تحدث عن سعي الرئيسين القوتلي وعبد الناصر الى جمع الملايين في انحاء الارض الى كلمة الحق والعدل . وخاطب الرئيسين قائلا .. يا ايها الشيخ العربي المؤمن ويا ايها الشاب العربي المؤمن انكما في سعيكما هذا تقودان الملايين من ابناء العروبة الى التعاون والتآخي لنكون جميعا احرارا اعزاء معتمدين على الله ومنتصرين بعون الله ، بارك الله جهادكما وقواكما واتم على العروبة نعمة الوحدة والتوفيق في ظلال الهدي الكريم الذي جاء به النبي محمد ...

وبعد انتهاء الصلاة تقدم الشيخ الشرباصي الذي أم الصلاة وصافح الرئيسين القوتلي وعبد الناصر وأرتفعت هتافات المصلين بحياة الوحدة العربية والرئيس القوتلي وعبد الناصر وحياة سورية ومصر .

ووقف الرئيس القوتلي يرفع يده محييا الآلاف الذين احتشدوا في المسجد يؤدون الصلاة مع الرئيسين والوزراء السوريين والمصريين .

وما ان خرج الرئيسان يحف بهما رئيس وزراء سورية ووزراؤها وزملاؤهم وزراء مصر واعضاء المجلس النيابي السوري واخوانهم اعضاء مجلس الامة المصري حتى التهبت حماسة الجماهير الغفيرة التي احتشدت في ميدان الازهر الفسيح وامتلأت بهم الاسطح هاتفين بحياة الرئيسين وحياة الوحدة العربية بينما وقف مصورو السينما والتلفزيون والمصورون الصحفيون يسجلون هذه اللحظات الخالدة في تاريخ مصر وسورية بل في تاريخ العرب .

ووقف الرئيسان في سيارتهما المكشوفة يردان تحية الجماهير وقد اشرق وجهاهما بالبشر وبدت في ملامحهما علامات العزم الاكيد على السير بالقافلة العربية الى هدفها الذي طالما كافحت وناضلت من اجله .. وحدة العرب .

واخذ رتل السيارات يشق طريقه ببطء بالغ وصعوبة شديدة بين الكتل البشرية المتراصة .

وكان رجال البوليس يعملون جاهدين ليشقوا طريقا لركب الرئيسين ركب النصر ومضت السيارات متباطئة في طريق العودة بالرئيسين ورفقائهما الى القصر الجمهوري بالقبة وباقات الزهور تنهال على الموكب من شرفات المنازل واضطرت سيارة الرئيسين أن تتوقف عن المسير عند ميدان الاوبرا الفسيح من كثرة ما تجمع حولها من الجماهير ثم استأنفت سيرها ببطء تشق طريقها الهوينى في شارع ٢٦ يوليو ومازالت باقات الزهور تنهال على ركب الرئيسين ووصل رتل السيارات الى

ميدان المحطة قاطعا مسافة لا تزيد عن الكيلو مترين في أكثر من اربعين دقيقة .

وفي ميدان باب الحديد وقف الطلبة العرب يلقون الاناشيد القومية ويصفقون ويهتفون بحياة الرئيسين القوتلي وعبد الناصر . وواصل الركب سيره بين الجماهير المحتشدة والهتافات الداوية حتى القصر الجمهوري بالقبة .

وبعد الظهر كانت القاهرة تموج بجموع الشعب وبممثلي جميع الطوائف والهيئات الذين يتقاطرون من جميع الانحاء في مظاهرات حماسية رائعة صوب دار رئاسة الجمهورية بشارع مجلس الامة حيث يعلن الرئيسان القوتلي وعبد الناصر مولد الدولة العربية الموحدة بشطريها في مصر وسورية . الاعلام المصرية والسورية تتعانق في الجو في جميع انحاء العاصمة المصرية وامتدت اللافتات عبر الشوارع مرحبة بالوحدة العربية وبحياة الرئيسين الكبيرين بطلي القومية العربية ووحدة العرب واقيمت اقواس النصر في كل مكان وغطيت الجدران وواجهات المحلات بصور الرئيسين جمال وشكري جنبا الى جنب ، واقيمت الزينات في كل مكان وتسابقت المحلات التجارية في تجميل واجهاتها بصورة الرئيسين والكريات الكهربائية وبالاعلام السورية والمصرية . هذا بينما تطوف السيارات التي تحمل الميكروفونات بجميع شوارع القاهرة وتنقل الاناشيد العربية الحماسية ابتهاجا بهذا اليوم التاريخي العظيم الذي يسجل انتصارا باهرا جديدا للقومية العربية اليوم الذي يتحقق فيه

أعظم آمال العرب في كل مكان الوحدة العربيـة التي التقت عندها اماني الشعوب العربية على توالي الاجيال والتي يعلن مولدها اليوم البطـلان المجاهدان شـكري القوتلي وجمـال عبد الناصر وفي دار رئاسة الجمهورية احتشد اكثر من مائة صحفي اجنبي واحتشدالمصورون الصحفيون ومصوروالسينما والتلفزيون لتسجيل اللحظات الخالدة في تاريخ العرب يسجلون الاحتفال الشعبي الضخم الذي سيشهد مولد الدولة العربية.

وغادر موكب الرئيسين جمال عبد الناصر وشكري القوتلي القصر الجمهوري بالقبة في تمام الساعة الرابعة والربع بعـد الظهر قاصدا الى دار رئاسة الجمهورية حيث يعلن قيام الدولة الموحدة وقد تلقته جماهير الشعب المحتشـدة في الساحـة الخارجية للقصر التي التهبت حماسة وارتفع هتافهـا مدويـا بحياة الرئيسين وبحياة الوحدة العربية ووقف الرئيسان فـي سيارتهما المكشوفة يردان تحية الجماهير وقد ارتسمت على وجهيهما علامات البشر والسعادة وتنم ملامحهما عن عزم اكيد في المضي قدما في طريق بناء الوحدة والمجد للعرب .

واتجه الركب الى شارع مصر والسودان الذي بدا في اجمل حلله وقد اصطف آلاف المصريين العرب على جانبيه يحيون بطلي الوحدة جمال وشكري وهما في طريقهما الى دار رئاسة الجمهورية ليعلنا مولد الوحدة التي التقت عندها آمال العرب وامانيهم والتي كانت ولا تزال هدف كفاح العرب في كل مكان.

واخذ الرئيسان يلوحان بأيديهما الى الجماهير ويردان لمى

حماسها وتحياتها وكانت الحشود تندفع نحو الموكب لتحية الرئيسين والتعبير عن فرحة الشعب بل فرحة الشعوب العربية من الخليج العربي حتى المحيط الاطلسي بمولد الوحدة التي ستؤكد قوة العرب وتماسكهم وتفتح امامهم آفاقا جديدة وتمضي بهم من نصر الى نصر .

ولما وصل الموكب الى ميدان التحرير في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين اخذ طريقه الى شارع القصر العيني فالى دار الرئاسة . وقد ضاقت الساحة الفسيحة المواجهة لدار الرئاسة بالحشود الغفيرة التي كانت تضم ممثلي نقابات العمال وجميع الهيئات والطوائف وكانت الهتافات ترتفع في حماسة بالغة تحية للرئيسين وكان الموكب يشق طريقه في صعوبة ومشقة بين الكتل البشرية المتراصة التي تجمعت لتحتفل باعلان الوحدة المقدسة وعند الباب الخارجي لدار الرئاسة تقدم الوزراء المصريون وكبار الضباط يرحبون بالرئيسين وبزملائهم الوزراء السوريين الذين قدموا مع الموكب .

ثم وصل ركب الرئيسين جمال عبدالناصر وشكري القوتلي الى دار رئاسة الجمهورية في الساعة الخامسة الا ثلث وكان في استقبال الرئيسين السادة الوزراء وبعد ان صافح الرئيسان مستقبليهما توجها الى مكتب الرئيس جمال عبد الناصر وبعد ان استراحا قليلا قصدا في الساعة الخامسة الا عشر دقائق الى قاعة الاجتماعات في دار الرئاسة وكان قد سبقهم اليها الوزراء المصريون والسيد صبري العسلي رئيس وزراء سورية والوزراء السوريون .

ودخل الرئيسان قاعة الاجتماعات فاستقبلهما الحاضرون بالتصفيق وسلطت عدسات التصوير الى ناحية الرئيسين وهما يقفان وحولهما قادة العرب وجلس الرئيسان سويا وامام كل منهما ميكرفون الاذاعة المصرية ووقف خلف كل منهما اعضاء الوفدين المصري والسوري وقدم كبير امناء رئاسة الجمهورية صفحة خضراء الى كل من الرئيسين ففتحها وتم توقيع وثيقة اعلان الجمهورية العربية المتحدة في الساعة الخامسة الا ست دقائق اذ وقع كل من الرئيسين نسختين من الوثيقة التاريخية ثم تبادلا النسختين للتوقيع وما ان انتهى الرئيسان من التوقيع حتى تعانقا وقال الرئيس القوتلي لاخيه المصري (مبروك) وصفق اعضاء الجانبين المصري والسوري طويلا للرئيسين ثم اديرت الوثيقتان على الوزراء السوريين والمصريين فوقعوهما وعلامات البشر بادية على وجوههم كما وقع الوثيقة السيد عبد اللطيف البغدادي رئيس مجلس الامة المصري واللواءعفيف البزري رئيس اركان الجيش السوري والسيد عبد الرحمن العظم سفير سوريا في مصر والسيد محمود رياض سفير مصر في سورية وما ان انتهى الجانبان من توقيع الوثيقة حتى اخذوا يتبادلون التهنئة ويصافحون بعضهم بعضا .

وفي الساعة الخامسة وعشردقائق تلا دولةالاستاذ صبري العسلي ، رئيس وزراء سورية ، وثيقة اعلان الجمهورية العربية المتحدة على آلاف الجماهير المحتشدة خارج دار رئاسة الجمهورية بالقاهرة ، عاصمة الجمهورية العربية المتحدة .

وثيقة اعلان

الجمهورية العربية المتحدة

في جلسة تاريخية عقدت في قصر القبة في القاهرة في ١٢ من رجب سنة ١٣٧٧ هـ الموافق اول شباط ١٩٥٨ اجتمع فخامة الرئيس شكري القوتلي رئيس الجمهورية وسيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيس جمهورية مصر بممثلي جمهوريتي سورية ومصر السادة : صبري العسلي وعبد اللطيف البغدادي وخالد العظم وزكريا محي الدين وحامد الخوجا وانور السادات وفاخر الكيالي ومأمون الكزبري وحسين الشافعي واسعد هارون والفريق عبد الحكيم عامر وصلاح الدين البيطار وكمال الدين حسين وخليل الكلاس ونور الدين طراف وصالح عقيل وفتحي رضوان واللواء عفيف البزري ومحمود فوزي وكمال رمزي استينو وعلي صبري وعبد الرحمن العظم ومحمود رياض . وكانت غاية هذا الاجتماع ان يتداولوا الاجراءات النهائية لتحقيق ارادة الشعب العربي ، ولتنفيذ ما نص عليه دستور الجمهوريتين من ان شعب كل منهما جزء من الامة العربية . لذلك تذاكروا ما قرره كل من مجلس الامة

المصري ومجلس النواب السوري من الموافقة الاجماعية على قيام الوحــدة بين البلدين كخطوة اولى نحو تحقيق الوحــدة العربية الشاملة .

كما تذاكروا ما توالى في السنين الاخيرة من الدلائل القاطعة على ان القومية العربية كانت روحا لتاريخ طويل ساد العرب في مختلف اقطارهم ولحاضر مشترك بينهم ومستقبل مأمول من كل فرد من افرادهم وانتهوا الى ان هذه الوحدة التي هي ثمرة القومية العربية هي طريق العرب الى الحرية والسيادة وسبيل من سبل الانسانية للتعاون والســلام ، ولذلك فــان واجبهم ان يخرجوا بهذه الوحدة من نطاق الامــاني الى حيز التنفيذ في حزم ثابت واصرار قوي ، ثم خلص المجتمعون من هذا المجلس الى ان عناصر قيام الوحــدة بين الجمهوريتــين السورية والمصرية واسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الاخيرة كفــاح مشترك زاد معنى القوميــة العربية وضوحا واكد انها حركة بناء وتحرير وعقيدة تعــاون وســلام .

لذلك يعلن المجتمعون اتفاقهم التام وايمانهم الكامل وثقتهم العميقة في وجوب توحيد سورية ومصــر في دولة واحــدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة .

كما يعلنون اتفاقهم الاجمــاعي على ان يكون النظــام في الجمهورية العربية ديمقراطيا رئاسيــا يتولى فيــه السلطــة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء يعينهم ويكونون مسؤولين

امامه كما يتولى السلطة التشريعيــة مجلس تشريعي واحــد ويكون لهذه الجمهورية علم واحد يظل شعبا واحدا وجيشا واحدا في وحدة يتساوى فيها ابناؤها في الحقوق والواجبات ويدعون جميعا لحمايتها بالانفس والمهج والارواح ويتسابقون لتثبيت عزتها وتأكيد منعتها .

وسيتقدم كل من فخامة الرئيسين شكري القوتلي وجمال عبد الناصر ببيان الى الشعب يلقى امام مجلس النواب السوري ومجلس الامة المصري في يوم الاربعاء ١٦ من رجب سنة١٣٧٧ الموافق ٥ شباط سنة ١٩٥٨ يبسطان فيه ما انتهى اليه هذا الاجتماع من قرارات ويشرحان اسس الوحدة التي تقوم عليها دولة العرب الفتية .

كما سيدعى الشعب في مصر وسوريا الى استفتاء خلال ثلاثين يوما على اسس الوحــدة وشخص رئيس الجمهوريــة والمجتمعون اذ يعلنون قراراتهم هذه يحسون بأعمق السعادة واجمل الوان الفخر اذ شاركوا في الخطوة الايجابية في طريق وحدة العرب حقبة بعد حقبة وجيلا بعد جيل والمجتمعون اذ يقررون وحدة البلدين يعلنون ان وحدتهم تتوخى جمع شمل العرب .

ويؤكدون ان باب الوحدة مفتوح لكل بلد عربي يريد ان يشترك معهما في وحدة واتحاد يدفع عن العرب الاذى والسوء ويعزز سيادة العروبة ويحفظ كيانها والله نسأل ان يكلأ هــذه الخطوة وما يتلوها من خطوات بجميل رعايته الساهرة وبفضل

عنايته السابقة وان يكتب للعرب النصر في ظل الوحدة العزيزة والسلام .

وعندما انتهى دولة الرئيس صبري العسلي من تلاوة الوثيقة تقدم الرئيس السيد شكري القوتلي وأعلن مولد الجمهورية العربية المتحدة بكلمة تاريخية خالدة هذا نصها :

ايها المواطنون الاحبة :

يا اخوة العرب ، هذا يوم مشهود من ايام العمر ، هذا يوم عظيم في تاريخ امة العرب ، وتحول كبير في مجرى الاحداث العالمية في هذا العصر ، في هذا المكان من هذه المدينة العربية العظيمة . نعلن على الملأ باسم الشعب العربي في كل من الجزئين الغاليين مولد الجمهورية العربية المتحدة .

ايه الاخوة : انه يوم من ايام التاريخ الخالدة ترمقه عيون الاجيال وتحوم في هذه اللحظة ارواح الشهداء الابرار انه فلذة من ماضي الجهاد المجيد ، ورجاء من روح المستقبل العربي العتيد ، انه اليوم الذي يحمل ثمرة جهودنا وجهادنا دانية القطوف يانعة وقد هبت عليها نسمة من روح الله باريء الحياة ، ومن روح هذه الامة الخالدة ، ومن روح الايمان والعزيمة والصدق والاخلاص . انه بالنسبة الي ايها الاخوة الاحباء ، وقد نذرت نفسي لخدمة القضية العربية منذ فجر الشباب ، قبلة رجاء وفرحة عمر ، ونفحة من السعادة تهز كياني وتغمر وجداني وتفيض علي رضى من الله وضميري وامتي .

اريد ان اقول لكم ايها الاخوة : في هذا الموقف التاريخي

الذي يشرفنا ، اننا باعلاننا وحدة الجزئين العربيين الغاليين، والقطرين المجاهدين المناضلين وطنا واحدا في جميع مرافقه وشؤونه بلا تفريق ولا تمييز ، وبلا تحديد وبلا تحفظ ، اننا لم نأت بجديد ولم نحاول الصناعة ، بل اننا نصلح اوضاعا ونعيدها الى اصولها ، ونلتزم بذلك كل الالتزام مع خصائص الوجود العربي وحقيقة الامة العربية ، وحقيقتها كانت ومازالت وستبقى الى الابد حرية ووحدة . وانني لعلى ايمان راسخ بأن الاجزاء العربية اذا وعت وتحررت تعارفت وائتلفت وتجمعت فتلاقت فالالفة هي الاصل ، والحرية للعرب امر محتوم مقدور لن تستطيع قوى الاعداء مهما اصطنعت لنفسها من قوى الشر ان تغير قليلا أو كثيرا من اقدار الامة العربية .

من أجل هذا اراني واثقا كل الوثوق أن وحدتنا القومية هذه نواة ستكبر وتنمو وخطوة في صميم الواقع العربي ستتلوها خطوات ، ولقد فتحنا نوافذنا للشمس ووضعنا خطى الاجيال الصاعدة في افضل طريق نحو التحرر والوحدة ، فهنيئا للشعب العربي في مصر وسورية ، وهنيئا للعرب جميعهم اينما كانت ديارهم ومساكنهم . هنيئا لكل من شهد هذا اليوم المجيد من ايام عمره وحياته .

وانتم أيها المصريون ، أيها الاخوة في العروبة وقد سرتم في نهضتكم بقيادة الرجل العربي جمال عبد الناصر ، فسارت بكم قضية العرب الى الامام انني احييكم واهز يد كل منكم على احر ما تعقد عليه الايدي من ود وصفاء . فقلوبنا معكم والله مؤيدنا وناصرنا .

وقد قوطعت كلمة الرئيس شكري القوتلي بالتصفيق الشديد والهتاف بحياة الوحدة بين شعبي سورية ومصر .

ثم تقدم الرئيس جمال عبد الناصر وسط هتاف الجماهير بحياة الجمهورية العربية المتحدة وألقى الكلمة التاريخية التالية :

ايها لمواطنون : هذا اليوم الذي تلتقي فيه جمهورية مصر مع جمهورية سورية لتتوحد أو تكونا الجمهورية العربية المتحدة هذا اليوم من ايام العمر التي نعتز بها على مر الزمن ونعتز بها على مر الايام ، النهار ده الشعب العربي في سورية والشعب العربي في مصر بيقرر ويعلن مشيئته بقيام دولة جديدة دولة عظمى دولة قوية تنبع ارادتها من مشيئتها وتنبع ارادتها من ضميرها .

النهار ده الشعب العربي في سورية والشعب العربي في مصر يقرران قيام هذه الدولة التي تثق في قوتها وتثق في حقها في الحرية وتثق في حقها في الحياة النهار ده يا اخواني نشعر جميعا اننا استطعنا ان نقيم دولة عظمى ودولة قوية حقيقية لاول مرة في هذا المكان بعد ان كان الاجنبي يقيم بيننا ويعلن عن نفسه انه يمثل القوة الكبرى ويمثل القوة العظمى .

ايها المواطنون : لقد كنا نتكلم عن القومية العربية شعارات وهتافات وكانت القومية العربية نداءات عاطفيةونداءاتمعنوية نتكلم عن القومية العربية وكنا نشعر بقوتها وكنا نشعر ان اعداءنا ارادوا دائما ان يقسموا الامة العربية الى مم صغرى

يتحكمون فيها ويسيطرون عليها وكنا نشعر ان كل دولة منـا تؤثر على مصير الدولةالاخرى وكنا نشعر انه لابد ان نتضامن ولا بد ان نتحد ، ولابد ان نثأر ، ولابد ان نتآخى حتى ندفـع عنا اطماع الطامعين وحتى ندفع عنا غيلة الزمن وحتى لا تتكرر مأساة فلسطين وحتى نستطيع أن نحافظ على الوطن العربى كلنا متحدين متكاتفين واليوم أيها الاخوة المواطنون بعـد أن كانت القومية العربية هتافا وشعارات أصبحت حقيقة واقعة اليوم اتحد الشعبالعربي في سوريا مع الشعب العربي في مصر وكونت الجمهورية العربية المتحدة ، هـذه الجمهورية المتحدة ستكون سندا وقوة للعرب جميعا ستعادي من يعاديها وتسالم من يسالمها ، ستتبع سياسة تنبع من نفسها ، سياسة تنبع من ضميرها . اليوم أيهـا الاخوة المواطنين اليوم يوم خالد في تاريخنا ومرحلة حاسمة في تاريخنا .

اليوم نشعر ان القومية العربية تتحقق حقا . اليوم ننظر الى المستقبل ونشعر انه سيكون بعونالله مليئا بالعزة والكرامة ننظر الى المستقبل وننظر الى الماضي ، ونقرر في نفس كل فرد منا في نفس كل واحد منا ان الماضي لن يعود ولن يسيطر علينا اجنبي ولن يستبد بنا مستبد ولكننا سنتجه الى الامام لنبني ونشيد لنرفع بمستوانا ولنزيد منقوتنا حتى لايتكرر ما فات، ننظر الى المستقبل ونتجه اليه ونراه مستقبلا عزيزا كـريما وننظر الىالقومية العربية التي نادينا بها والتي حلمنا بها والتي كانت لنـا من الاماني وسنعمل جميعا بعون الله على تثبيت

اسسها وسنعمل جميعا مع الوطن العربي ومع الشعب العربي في كل مكان .

أيها الاخوة المواطنون فلنطلب من الله الهداية والتوفيق. والسلام عليكم ورحمة الله .

وبعد ان انهى الرئيس جمال عبد الناصر كلمته غادر مع الرئيس شكري القوتلي الشرفة ، ولكن امام الحاح الجماهير خرج الرئيسان مرة اخرى الى الشرفة ، والقى الرئيس جمال عبد الناصر كلمة ثانية قال فيها :

أيها المواطنون : في هذه اللحظة لابد ان أذكر لكم جهاد الرجل العربي الذي جاهد في سبيل الوحدة العربية لمدة تزيد عن ٥٠ عاما اليوم أيها المواطنون ، أتكلم اليكم عن جهاد شكري القوتلي الذي جاهد في سبيل استقلال بلده ، وفي سبيل استقلال وطنه ، حارب فرنسا وسجن وحكم عليه بالاعدام ، وحارب أيضا من اجل القومية العربية ومن أجل الوحدة العربية فاذا كنت اهنئكم اليوم فانني اهنيء شكري القوتلي الذي استطاع أن يحقق الحلم والذي استطاع ان يحقق الآمال.

ايها المواطنون : بهذه الصفات ، وبهذه القيم سنستطيع أن نثبت المبادىء وسنستطيع أن نثبت المثل العليا ، بهذه المبادىء وبهذه المثل ستسير الجمهورية العربية المتحدة قدما الى الامام وراء المثل العليا التي بناها شكري القوتلي ، والتي عبر عنها شكري القوتلي ، والتي آزرها شكري القوتلي .

أيها المواطنون باسمكم جميعا أتكلم الى الاخ الاكبر ، اخي شكري القوتلي وأقول له : اننا جميعا نحييك ، واننا جميعا نحيي جهادك والله يوفقك وان الشعب العربي في كل مكان سيذكر على مر الزمن ما قمت به ، وان الجمهورية العربية المتحدة هي خير هدية لك اليوم ، وباعلان مولدها على انها النافذة الكبرى في سبيل الوحدة العربية والله يوفقنا جميعا والسلام عليكم ورحمة الله .

البيان التاريخي الذي القاه الرئيس شكري القوتلي في المجلس النيابي مستعرضا جهاد الامة منذ وثبتها الاولى :

أيها النواب المحترمون :

افتتح كلمتي اليكم اليوم ، في هذه الجلسة التاريخية التي يعقدها مجلسكم الكريم ، بحمد الله حمدا كثيرا على ما أفاء علينا من نعمته ، وما أحاطنا به من سابغ عنايته ، فوجه خطانا في طريق الصواب ، وألهمنا الخير والرشاد ، وأخذ بيدنا أخذا عزيزا في سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه ، ووجه الحق ، حتى رأينا بعيوننا ما كنا نراه باحلامنا وامانينا ، وتفتحت لنا في هذه الدنيا آفاق واسعة ، وآمال جسام .

في الجلسة الكبرى التي يعقدها مجلسكم ، ونحن في نقطة تحول جديد في تاريخ هذا الجزء السوري من الوطن العربي اريد ان اذكركم لتذكروا ابدا ، ان نضالنا في سبيل حريتنا ، كان يمشي جنبا الى جنب مع نضالنا في سبيل الوحدة القومية

فمنذ ان فتحنا على الحكم العثماني ثم على الاحتلال الفرنسي ، نار الجهاد ، أعلنا جهـادنا على الملأ باسم الله وباسم العروبة وكانت كل حركة سورية نقوم بها ضد الاغتصاب ، والاحتلال ، متصلة الجذور ، بكل وسط عربي يهزه مثلما يهـزنا شعور العزة والكرامة ، وتدفعه مثلما تدفعنا شعائر العقيدة والايمان، والتاريخ المشترك ، والمصير المشترك .

لقد أردنا الثورة العربية خلال الحرب الكونية الاولى ، وفي اعقابها ، ثورة في سبيل الحرية والوحدة فنصبت لنـا اعواد المشانق وتهافت عليها الاحرار وهم ينشدون اناشيد الحرية والنصر . وكان نداء هذه الارض العربية المطهرة بدماء الرواد الاول ، ايذانا بتفجير الثورة على اربعمائة عام من حكم الارهاب والافنـاء .

ولقد هال الدول الكبرى من بعـد ، أن يستيقظ العملاق العربي ويدق ابواب الحرية والوحدة ، وكانت قد قررت مصيره في الخفاء بينما كنـا لا نزال في مهب جهاد التحرير ، وراحت تفرض سياسة السيادة الاستعمارية بالتجزئة وتقطيع الاوصال، فاخترعت نظام الانتداب ، ورمت الوثبة العـربية في شـراك الصداقات الكاذبة والخلافات الخادعة .

وكان هذا الجزء السوري من الوطن العربي أول من دوت في الآفاق صيحته . وتخضبت بالدماء الزكية ثورته ، ومضى تاريخنا من موقعة ميسلون عام ١٩٢٠ حتى موقعة هذا المجلس النيابي عـام ١٩٤٥ ، خطـا مستقيمة من المضاء والعـزيمة

والنضال ، تنير جوانبه مشاعل البطولة محترقة بدماء الشهداء حتى رأينا العدو الباغي ينكس راياته فوق هذه السهول الحبيبة ويغمد سيفه في قلب غروره . ويخرج من هذه البلاد ذليلا مدحورا .

كانت حركة النضال السوري ايها النواب المحترمون ، على اتصال مستمر وثيق ، جهارا وسرا ، بشتى عناصر المقاومة في كل أرض عربية وكنا نعمل ابدا على أن تتواصل حركات المقاومة والجهاد في كل بلد عربي فرضت عليه التجزئة والانتداب، او قيود المعاهدات وكثيرا ما التقت التيارات السورية بالروافد العربية هنا وهناك ، لاعلان النقمة والثورة على سلطات الاحتلال والاغتصاب .

وكنا نوجه النضال المحلي توجيها قوميا شاملا قناعة منا بأن النجاح معقود على تعاقد الايدي ، وتلاقي القوى ، وليس من سبيل للاعراب عن وحدة الارض ، ووحدة الهدف ووحدة المصير الا بوحدة النضال والعمل القومي المشترك ، وعندما ظفرنا بالحرية والاستقلال ، وجلت جيوش الاحتلال جلاء ابديا عن أرضنا وبلادنا كنا نرى استقلالنا المنيع العزيز منطلقا الى حرية عربية أمنع والى عمل قومي أوسع نطاقا وابعد أملا وطموحا ، بل قد تعالت بحريتنا بشائر التحرير العربي .

وأخذت ابواق الاستعمار منذ عام ١٩٥٥ تقرع نذير الخطر المقبل من العالم العربي متلاقية على هدف واحد في قمع حركة الانطلاق ووضع السدود في طريق الركب المتصاعد . وعبثا

كانوا يهولون وعبثا كانوا يكيدون ، وعبثا ما كانوا يضعون في طريقنا من مصاعب وعقبـات .. فقـد شببنا على الطوق ، وخرجنا الى النور وعبثا نقبل لحريتنا بديلا .

لقد رفضنا كل مساومة على حريتنا ونبذنا كل مشروع يمس سيادتنا وكرامتنا ، وشعرنا منذ أيام الاستقلال الاولى ان المستعمر ينظر الى بلادنا الحرة نظرته الى فراغ يطمع به ، ويطمح الى ملئه ، فوقفنا بوجه المطـامع الجديدة وقفة ايمان وعز ، وكان جوابنا على كل محاولة سافرة أو مقنعة بأننا لم نجل الغاصبين ، ليحل محلهم غاصبون آخـرون ، مهما كانت ازياء صداقتهم ومجاملاتهم . بل قد خيل اليهم ان متـاعب ايام الاستقلال ستطفيء في صدورنا جذوة الطموح الى استكمال أسباب الحياة الحرة العزيزة فراحوا يترقبون ويتربصون .

ثم اذركوا اننـا طلاب حرية ووحدة فلوحوا لنا بمشاريع ذات أشكال خادعة من الاتحاد والوحدة كمشروعي سـورية الكبرى والهلال الخصيب ، وأدركنا بلا وناء ، ان هذه المشاريع ليس وراءها سوى سوق استقلالنا الى مزالق النفوذ الاجنبي وربط حريتنا بمعاهدات مفروضة ، ومحالفات باطلة فجمعنا أمرنا على مقاومتها ، وأنقذنا ارادة شعبنا في نبذها وتوهينها ، وكدنا أن ننفرد ذات يوم في سـاحة النضال ، ونحن نمسك بقبضتنا على شرف استقلالنا ، بينما لم نفتر يوما واحدا عن دعوتنا الى توسيع ساحة العمل القـومي المشترك ، والتبشير بالحرية طريقا الى الوحدة .

على هـذه العزيمة النضـالية اسسنا الجامعة العـربية وأردناها لتنسيق الاعمـال وتوحيد الجهود واكثـار مجالات اللقاء خطوة نحو لقاء قومي دائم ، وعلى هذه العزيمة اردنا أن نخـرج من كارثة فلسطين الى تضـامن عربي أقوى وثوقا ، وأعز جانبا ، وقد وضعتنا الكارثة ومن سببوها ازاء عدو سفاح جعل منه المستعمرون جبهتهم الاولى لكرههم على بلادنا وتخليد نفوذهم وسيطرتهم عليها . وبقي جزؤنا السوري هذا في خضم الهول وتلاطم تيارات الاستعمار صخرة تتحطم عليهـا المكائد وترتد المطامع خاسرة فاشلة .

ومهما تكن طبيعة الاحداث العربية والدولية وتقلباتها خلال الاعوام العشرة الاخيرة ، فقد بتنا على يقين بعد طول التجارب والوقائع ان الوعي العربي القـومي قد بلغ أشده وهو آخـذ بالتوسع والرسوخ وان ما تعرضنا له من مخاطر ومكائد ، لم يكن بالواقع سوى سبب بين الاسباب الرئيسية التي وحدت شعور العرب مشرقا ومغـربا ، ووضعت رجـال هذه الامة وحاكميها وقادتها في المواقع الامامية من تبعاتهم الكبرى ازاء وثبة التحرر والوحدة .

وانه لمن أعز ما نفاخر به اليوم ، ونحن مقبلون على حدث الاحداث العربية في القرن العشرين ان السوريين لم يصونوا استقلالهم الا ليدفعوا به الى الامام عجلة الاستقلاله العربي كاملا ولم يحتفظوا لانفسهم بسلامة كيانهم وسيادتهم في ارضهم الا ليلقوها دعامة راسخة في بنـاء كيان عربي ذي سيادة ، وقد

شرفني ان اعرب عن ضمائرهم وشعورهم يوم الجلاء عام ١٩٤٦ عندما رفعت علم الاستقلال ، وقلت لن يرتفع فوقه ان شاء الله الا علم واحد هو علم الوحدة العربية .

هـذا هو الموجز في تاريخنا القومي أيها السادة النواب ، نضال في سبيل الحرية ، وحرية في سبيل الوحدة .

لم نهادن في جهادنا ولم نساوم ، لم ندخر طاقة ولا جهدا ، ولا وفرنا مالا ولا رجـالا . وكنا ابدا في صراع مع الاعداء غير متكافيء ، فما وهنا ولا هانت علينا نفوسنا ، وكانت المقاومة أعظم من قوى الشر لان الايمان كان في اعماقها ابدا .

* * *

أيها النواب المحترمون :

في خلال العامين الاخيرين في هذا التاريخ الحافل ، تم لقاؤنا القومي من جديد مع مصر الثورة ، فكان لقاء أخويا صادقا على صعيد المبـادىء القومية السامية ، وعلى أسس صريحة من سياسة دولية ، مستوحاة من مصلحتنا القومية العليـا ومن حرصنا الشديد على صيانة معنى السيادة بكل جماله وجلاله .

وطالما تعانقت في التاريخ البعيد والقريب ، أسيافنا وأقلامنا وأرواحنا ، ولكن لقاء اليوم ، الى جانب كل ما بيننا من اواصر القربى والتاريخ والمصلحة القومية ، هو اعراب كامل عن عزم نضالي ، تجلى في وعي شعب عربي حر . وهـذه هي بالذات نقطة اللقاء في تاريخ العرب الحديث . وهذا التاريخ لن يكون

جمودا على الاوضاع المصطنعة ، ولا ركودا على الآفاق المحدودة ، ولا اتكاء ، ولا انانية ولا هروبا الى العـزلة بعيدا عن تطورات الاحداث ومجابهة الوقائع .

لقد دعم الجبهة المصرية السورية أيها الاخوان ، عامل جديد من العوامل الخارجية التي أرادت أن تصدع الجبهة الصامدة فزادتها قوة ومناعة وصمودا ، ومثلما شعر المستعمرون بثقل الجبهة القوميـة في الميزان الدولي ، ازددنا شعورا بوزنها في تطور الاحداث وبضرورتها في حفظ التوازن العـالمي لمصلحة العدل والحرية والسلام .

ولقد أرادوا لنا الحرية بعد طول المضاء والعناء حرية مغلولة اليد ، مشلولة الحركة ، ترسف في اغلال الاتفاقيات والاحلاف وتتوكأ عاجزة على عصي المساعدات والتبرعات ، فلا تعكس من واقع الحرية سوى ظلالها وابينا الا أن نريدها حرية كاملة شاملة تمثل سيادة امة ، وطموح حياة عزيزة كريمة .

وكان لا بد لمصر من أن تدخل معركة الحرية الضارية في تأميم قنـاة السويس . كما دخلت سورية معـارك الحرية فاستحق هذان الجزءان العربيان الغاليان نعمة الحرية الوارفة الظلال بعد أن وضعتهما التجارب على لظى النيران آنا بعد آن ، ودورا بعد دور حتى صفا الجوهر الخـالص ، واستحال كل باطل الى الرماد وكان لنا ما اردناه حرية خالصة وكانت الحرية وحدها سبيلنا الى ربط مصائرنا المشتركة برباط الوحـدة الجامعة .

في سبيل الحرية والسيادة نادينا بمباديء الحياد الايجابي وعدم الانحياز ، لأنه من شروط السلامة والسيادة أن نتحرر من سياسة الطامعين ، ومضرمي الحروب ، فليست أرضنا موطئا لاقدام جيوشهم ، ولا ثرواتنا موردا لحروبهم ، ولا ابناؤنا جنودا في معسكراتهم ولا مبادؤنا وعقائدنا ، ذريعة لنشر مبادئهم وعقائدهم .

على هذه المباديء والاسس وبروح كلها صدق ، وعزيمة ، ومضاء ، توالت اتصالاتنا بمصر العزيزة ، خلال الشهور الاخيرة تحقيقا لقرار مجلسكم ولقرارات الحكومة المنبثقة عنكم ولارادة الشعب بجميع احزابه وهيآته وانتهينا الى تلك الجلسة المشتركة التي عقدت في قصر القبة يوم الاول من شباط عام ١٩٥٨ والثاني عشر من رجب عام ١٣٧٧ بحضور كامل أعضاء الحكومتين المصرية والسورية وأعلنا باسم الله ، والشعب العربي في كل من الجزاين الغاليين : مولد الجمهورية العربية المتحدة مؤكدين في البيان التاريخي ان عناصر الوحدة بين الجمهوريتين السورية والمصرية واسباب نجاحها قد توافرت بعد أن جمع بينهما في الحقبة الاخيرة ، كفاح مشترك زاد معنى القومية وضوحا واكد انها حركة تعمير وعقيدة تعاون وسلام كما انها في الوقت نفسه خطوة ايجابية في طريق وحدة العرب وتضامنهم ودعوة اليهم للالتقاء معها بأي شكل مناسب من اشكال الوحدة أو الاتحاد .

فالى العرب في موطنهم ومهاجرهم اعلن من فوق هذا المنبر، كما أعلنت في القاهرة يوم الاول من شباط . هذا الميثاق القومي

الجديد فتحا من الله ونصر عزيزا ، ففي مـدى الالف عام التي مضت لم يكن أعظم منه شأنا ، ولا ابعـد اثرا في حيـاة الامة العربية بل في تاريخ هـذا الشرق الكبير وانني لأرى منذ الآن رؤية العين ، وحدتنا القومية . مؤتلفة مع بقية الاجزاء العربية بأسباب الوحدة أو الاتحاد على المبادىء التي نعمل من اجلها ، ونسعى أبدا لتوطيدها وهي مبادىء الحرية والعدل والحيـاد الايجابي وعدم الانحياز مبادىء غدت ترمز اليوم الى ممارستنا حقنا الكامل في السيادة القومية .

واليكم ايها النواب المحترمون هذه المبادىء التي تم الاتفاق عليها لتكون أساسا في بناء الجمهورية العربية المتحدة ، اقدمها لمجلسكم الكريم وفاقا لما تقرر في الجلسة التاريخية المنعقدة في قصر القبة في القاهرة بين الحكومتين السورية والمصرية .

هذه المبادىء والاسس التي تقوم عليها الجمهورية العربية المتحدة ، تلوتها عليكم ، وما هي بالواقع الا من وحي شعوركم وضميركم ، ومن صميم ارادة هذا الشعب الابي المناضل الذي انتخبـكم وائتمنكم ، فأعربتم عن ارادته في شتى المنـاسبات والظروف حق الاعراب ، واستحق كل منكم شكر بلاده وامته .

ايها النواب الافاضل :

في هذا اليوم الخامس من شباط عام ١٩٥٨ ، يكون قد مر على انتخابي رئيسا للجمهورية من قبـل مجلسكم الـكريم ، وتطويق عنقي بثقتكم الغالية ، سنتان ونصف السنة . ومثلما

اتيح لي خلال عهد الرئاسة الاولى بين عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٦ شرف أعلان الاستقلال وجلاء الاجنبي عن هذا الجزء العربي العزيز ، كذلك أتيح لي شرف ارفع وادعى الى الاعتزاز باعلان مولد الجمهورية العربية خلال عهد رئاستي هذه بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٥٨ .

وكم ارجو ايها الاخوان الاعزاء أن أكون باعتباركم وباعتبار هـذا الشعب العربي العظيم ، الذي يشرفني أن انتسب اليه مواطنا عاديا ـ كم ارجو أن أكون باعتباركم واعتباره قد اديت واجبي نحو بلادي وامتي ، وكنت جديرا بالثقة التي اوليتموني اياها خـلال هذه الحقبة من الزمن العصيب ، فان قصرت ، فعذري انني عملت بصبر وايمان وصدق واخلاص وان أخطأت فعـذري انني انسان . وليس الانسان بمعصوم وان فاتني شـرف الاستشهاد ولم أكن بجوار الخالدين من أحرار هـذه الامة ، فأمام الله أشهد انني لم اجنب نفسي خطرا ولم أوفرها عن شهادة .

وقد اراد الله ان التقي باجيال الشباب تتقدم الموكب العربي الطـالع وفي جباههـا وعود المستقبل فطيبت نفسي واثلجت صدري وغمرت كياني بسعادة الطمأنينة والثقة . وانني اذ أرفع بيدي تلك الشعلة المقدسة لاسلمهـا في أوج اشتعالها الى يد الاجيال الشابة القادرة في أوج فتوتها وشبابها ، ابارك اليد التي تحمل والساعد الذي يرتفع ، والشعلة التي تضيء والجيـل

الذي يصعد ، والروح التي تتـدفق ، والمستقبل الذي تبلج فجره وهلت للملأ راياته .

انني اذ اسلم الامانة الغـالية طيب النفس ، قرير العين ، واثقا مطمئنا ، أرشح لرئاسة الجمهورية العربية المتحدة أمام مجلسكم الكريم في هـذه الجلسة القومية التاريخية ، الرجل المؤمن والقائد العربي الملهم الرئيس جمال عبد الناصر . وسأكون غدا في يوم الاستفتاء يوم الواحد والعشرين من شباط عام ١٩٥٨ أول من يقوم بواجبه كمواطن لانتخاب الرئيس القائد ، الذي وضع ثورة مصر في خدمة القومية العربية ، كما وضع نفسه في خدمة امته ، ليعمل في سبيل حريتها ومجدها ورخائها .

في هذا اليوم الخامس من شباط عام ١٩٥٨ وجهت الى سيادة رئيس مجلس الامة بمصر الرسـالة التـالية ، وانني اعتبرها موجهة اليكم في الوقت نفسه ، والى كل مواطن عربي في أرض الجمهورية العربية المتحدة .

سيادة رئيس مجلس الامة ــ القاهرة .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد . انني اذ اعلن لمجلس النواب السوري رسميا مولد الجمهورية العربية المتحدة والميثاق الذي تم الاتفاق عليـه بين حكومتي جمهورية مصر والجمهورية السورية في اجتماعات القاهرة يوم الجمعة الأول من فبراير الى يوم الاحد الثالث منه عام ١٩٥٨ الموافق للثاني عشر من رجب الى الرابع عشر منه ١٣٧٧ فيصبح حلم الاجيال

العربية حقيقة واقعة تنفيذا لارادة شعب الجزئين العربيين الفاليين .

ارى من واجبي ونحن قادمون على الاستفتاء الشعبي المترر لانتخاب رئيس للجمهورية العربية المتحدة ، يوم الجمعة ٢١ فبراير ١٩٥٨ ، ان اكون المواطن الاول فيالدولة الجديدة ، يرشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر رئيسا لها ، شعورا مني بالواجب تجاه امتي وبلادي ، وثقة مني باخلاص الرجل العربي المؤمن الذي تعقد عليه الامة اكبر الآمال ، وتقديرا لما يتمتع به من صفات النزاهة والجراة والاقدام ، وعلى رأسها تفانيه في خدمة امته وقوميته العربية .

انني اذ ارشح سيادة الرئيس جمال عبد الناصر لتسلم هذه الامانة الفالية ، اعلن ثقتي واطمئناني الى ان سيادته سيعمل على اعلاء شأن الجمهورية الفتية بكل تجرد وصدق لما فيه عزها ورخاؤها وسعادة مواطنيها ، وما فيه خير العرب في جميع ديارهم ومساكنهم والله ولي التوفيق .

شكري القوتلي

بهذا ايها النواب الكرام ، اتم واجبي واكون قد اديت الامانة الفالية التي حملتوني اياها تكريما وتشريفا ، وأنا على اشد ما يكون المواطن مغمورا بشعور الرضى . رضى الله وضميري وامتي .

فالى مجلسكم الكريم رئيسا واعضاء اوجه أجمل التحية

والشكر لما نهضتم به من اعباء جسيمة وما انجزتم من تشريعات مفيدة خلال عهد نيابتكم الزاهر فمثلتهم شعبكم خير تمثيل وتوجتم اعمالكم القومية الباهرة بقراركم التاريخي في وحدة مصر وسوريا .

والى الحكومة المجدة العاملة برئيسها ووزرائها الذين كانوا في ايام الشدائد التي مرت بالبلاد خير من يمثل اباء هذا الشعب وعزته وطموحه واقدامه أجمل التحية والتقدير لأنهم بفضل علمهم واخلاصهم وايمانهم تمكن جهاز الحكم في البلاد من اجتياز أدق المراحل في تاريخنا الحديث . وقد بلغوا في مباحثات الوحدة القومية مع مصر العزيزة أوج التوفيق والنجاح وكتبوا بأقلامهم وثيقة الحرية والوحدة .

الى الجيش السوري الفتي بقادته وضباطه وجنوده أوجه تحيتي وشكري واعجابي وقد كان الجيش عيننا الساهرة ، وساعدنا العامل ودرعنا الواقية وكان القذى في عيون الاعداء والشوك في مضاجع رقدهم ، كما كان في ميدان التعاون العسكري عن طريق القيادة المصرية السورية المشتركة خير عامل من عوامل تحقيق الوحدة القومية بين جيشي الجوئين العربيين المناضلين .

الى هذا الشعب العربي الحبيب الذي طالما منحني محبته ، واكرمني بثقته وشجعني بحماسته وايمانه ، وملأ قلبي زهوا وفخرا بامتي وبلادي ، الى هذا الشعب الابي المقدام الذي كان ابدا من وراء كل شجاعة ، وتضحية وبطولة وانتصار ، الى

هذا الشعب ارسل تحيتي ووعدي أن أكون أبدا في خـدمته جنديا من جنوده وعاملا اسعى لخيره واسعاده في ظل عهـده الجديد وجمهوريته العربية المتحدة .

بيـان شامل حول الوحدة يلقيه في مجلس الامة الرئيس جمال عبد الناصر :

أيها المواطنون اعضاء مجلس الامة : في حياة الشعوب اجيال يواعدها القدر ويخصها دون غيرهـا بأن تشهد نقطة التحول الحاسمة في التاريخ ، انه يتيح لها أن تشاهد المراحل الفاصلة في تطور الحياة الخالدة تلك المراحل التي تشبه مهرجان الشروق حين يحدث الانتقال العظيم سـاعة الفجر من ظلام الليل الى ضوء النهار ، ان هـذه الاجيال الموعودة تعيش لحظات رائعة انها تشهد لحظات انتصار عظيم لم تصنعه وحدها ، ولم تتحمل نتيجته بمفردهـا وانما هي تشهد النتيجة المجيدة لتفـاعل عوامل اخرى كثيرة واصلت حركتها في ظلام الليل ووحشته وعملت وسهرت وظلت تدفع الثواني الى الانتقـال العظيـم ساعة الفجر .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : ان هذا الجيل من شعب مصر من تلك الاجيال التي واعدها القدر يحق لها الانتقال الى المرحلة التي تشبه مهرجان الشروق ، لقد عشنا ساعة الفجر ورأينا انتصار النور الطالع على ظلمات الليل الطويل ، لقد عشنا فجر الاستقلال وعشنا فجر الحرية وعشنا فجر القوة وعشنا

فجر الامل في بناء مجتمع سعيد واليوم نعيش فجرا جديدا رائعا لقد بدأ مشرق الوحدة .

ايها المواطنون أعضاء مجلس الامة : لقد سبق كل فجر شهدنا مطلعه ليل طويل ، لقد سبقت فجر الاستقلال وفجر الحرية وفجر العزة والكرامة وفجر القوة وفجر الامل ليال طويلة امتدت مئات السنين في صراع مستمر مع ظلام الاستعمار والاستبداد والظلم والضعف . ليال طويلة عاشتها اجيال قبلنا وقاست أهوالها وتحملت مصاعبها لكي تقرب منا اللحظات الرائعة للانتقال العظيم وكذلك هذا الفجر ، الذي نشهد هذه اللحظة مطلعه ان الليل الذي سبق فجر الوحدة هو دون شك اطول ليالي كفاح امتنا العربية ، ذلك ان الامل الذي يتحقق لنا اليوم هو أقدم آمالنا في تاريخ الوحدة عمر امتنا هو نفس عمر تاريخ امتنا .

لقد بدأ وجهه منذ بدات تنشأ على نفس الارض وعاش نفس الحوادث واندفع الى نفس الاهداف فلما استطاعت امتنا ان ترسي قواعد وجودها في هذه المنطقة وتثبت دعائم هذه القواعد كان مؤكدا ان الوحدة قادمة وان موعدها بات قريبا .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : لقد كان الكفاح من اجل القوة من أجل الحياة ، ولقد كان التلازم بين القوة والوحدة ابرز معالم تاريخ امتنا فما من مرة توفرت القوة الا وكانت الوحدة نتيجة طبيعية لها وليس محض صدفة ان اشاعة الفرقة واقامة الحدود والحواجز كان اول ما يفعله كل من يريد أن

يتمكن في المنطقة ويسيطر عليها . وكذلك لم يكن محض صدفة ، ان محاولات الوحدة في المنطقة لم تتوقف منذ أربعة آلاف سنة طلبا للقوة بل طلبا كما قلت للحياة .

ولقد كان اسلوب السعي الى الوحدة يتشكل بالعنصر الذي قد تعيش فيه كل محاولة لتحقيقها ولكن الهدف ظل دائما لا يتغير وبقيت الغاية في كل وقت هي هذه اللحظات التي نعيشها الآن لقد اتحدت المنطقة بحكم السلاح يوم كان السلاح هو وسيلة التعبير في الطفولة الاولى للبشرية واتحدت المنطقة بتعيين النبوات حين بدأت رسالات السماء تنزل الى الارض لتهدي الناس واتحدت المنطقة بسلطان العقيدة حين اندفعت رايات الاسلام تحمل رسالة السماء الجديدة وتؤكد ما سبقها من رسالات وتقول كلمة الله الاخيرة في دعوة عباده إلى الحق واتحدت المنطقة بتفاعل عناصر مختلفة في امة عربية واحدة واتحدت المنطقة باللغة يوم جرت العربية وحدها على كل لسان واتحدت المنطقة تحت قوة السلامة المشتركة يوم واجهت استعمار أوروبا يتقدم منها محاولا أن يرفع الصليب ليستر مطامعه وراء قناع من المسيحية وكان معنى الوحدة قاطعا في دلالته حين اشتركت المسيحية في المشرق العربي في مقاومة الصليبيين جنبا الى جنب مع جحافل الاسلام حتى النصر . واتحدت المنطقة بالمشاركة في العذاب يوم حلت عليها غارات الغزو العثماني واسدلت من حولها استار الجهل تعوق تقدمها وتمنعها من الوصول الى عصر النهضة في نفس الوقت الذي

بدأ فيه عصر النهضة في اوروبا بل ان المنطقة اتحدت فيما تعرضت له في كل نواحيها من سيطرة الاستعمار عليها ثم كان اتحادها في الثورة على هذا الاستعمار بكل اشكاله ومقاومته فيتعدد صوره ومع الوحدة فيالثمرة كانتالوحدة فيالتضحيات فان المشانق التي نصبها جمال باشا في دمشق عاصمة سورية لم تكن تختلف كثيرا عن المشانق التي نصبها اللورد في دنشواي هنا في مصر .

أيها المواطنون اعضاء مجلس الامة : هكذا ترون الوحدة حقيقة ، حقيقة نسعى اليها او حقيقة قائمة بالفعل وهكذا ترون ان الصراع من أجل القوة من أجل الحياة يتم ويتحقق بالوحدة أو ترون الوحدة لا تتم ولا تتحقق الا بقوة الحياة ، هكذا ترون ان تاريخ القاهرة في خطوطه العريضة هو بنفسه تاريخ دمشق في خطوطه العريضة ولقد تختلف التفاصيل ولكن المعالم البارزة هي نفس المعالم ، نفس الدول ، نفس الغزاة ، نفس الملوك ، نفس الابطال ، ونفس الشهداء . بل انه لما بدا في بعض الاحيان ان مصر ابتعدت عن الفكرة العربية وقطعت ما بينها وبين المنطقة من صلات وذلك بعد الحملة الفرنسية على مصر ثم تحتحكم اسرة محمد عليلم يكن الامر في باطنه يمثل ما يبدو في ظاهره .

لم يكن البعد الا سطحيا ولم تكن القطيعة الا باللسان اما الشواهد الحقيقية واما الادلة الاصيلة فكانت تؤكد ما قربه الله لا يمكن أن يتباعد وما وصلته الطبيعة لا يمكن ان ينقطع ومن

بين الشواهد والادلة ان جيش الفلاحين سار تحت قيـادة ابراهيم باشـا ليحرر سورية من الظلم العثماني وكان يسمي نفسه بالجيش العربي .

ومن بين الشواهد والادلة ان القـاهرة التي سارعت في النصف الاخير من القرن التاسع عشر الى فتح النوافذ لتيارات النهضة تحولت الى قلعة للفكر الحر في الشرق العربي ، وما لبث رواد الحرية في سورية ورواد الحرية في المنطقة العربية كلهـا أن وفدوا اليهـا يتحصنون بأسوارها المنيعة ويبعثون منهـا اشعاعات الفكر لتعبيء وتلهم بل ن القـاهرة تحولت في مطلع القرن العشرين فأصبحت هي ودمشق المركز الرئيسي للجمعيات السرية التي راحت تناضل جبروت سلاطين استانبول من أجل تحرير الامة العـربية بكل ما يملكه الشباب من روح البـذل والفـداء .

هكذا كانت الوحدة هي الحقيقة وكان كل ما عدا الوحدة اصطناعا . وهكذا كان واضحا انه إذا تركت المنطقة تستوحي طبيعتها وتستلهم مشاعرها وتستمع الى دقات قلبهـا فان اتجاهها الى الوحدة يصبح لا ريب فيه ولا مناص منه وهذا هو ما حدث .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : حين حصلت سورية على استقلالها الكامل تطلعت الى مصر وحين حصلت مصر على استقلالها الكامل تطلعت الى سورية . ولقد كان التقارب بل التوافق والتماثل كاملا حتى قبل أن يوقع ميثاق جامعة الدول

العربية ، وحتى بعد أن تم توقيعه وأرادت له بعض القوى أن يبقى حبرا على ورق . لقد كان في سورية رد فعل لكل حدث في القاهرة . في مصر وسورية ذلك الفوران الذي اعقب الحرب العالمية الثانية وبدأت على اثره حركات التحرير الهائلة في افريقيا وآسيا في سورية ومصر هذه الهزات العنيفة وورائها جميعا محاولات تغيير الاوضاع الى الافضل والاحسن في مصر وسورية ذلك الاندفاع الى حرب فلسطين بالفروسية والايمان ولكن من غير سلاح ثم كانت في القاهرة ودمشق تلك الآثار التي ترتبت على حرب فلسطين والتي كان أولهــا تلك اليقظة التي تشبه انتفاضة من لسعته النار فاستفاق .

ثم في سورية ومصر نفس المعارك ولو قصرنا الحساب على الشهور الاخيرة فقط لكان مدهشا ان المعــارك التي خاضتها دمشق هي نفس المعارك التي خاضتها القاهرة معركة الاحلاف العسكرية معركة السلاح معركة عدم الانحياز معركة المؤامرات معركة التحرر الاقتصادي .

بل ان سورية خاضت معركة قناة السويس بنفس العنف وبنفس القوة التي خاضت بها بور سعيد معركة قناة السويس وكذلك حاربت مصــر معركة التهديدات الموجهة الى سورية وأعصابها كلها في دمشق وامام اعصابها قطعة من جيشها احتل جنودها مراكزهم جنبا الى جنب مع اخوالهم جنود سورية . ولقد كان ذلك كله مدهشا ولكنه لم يكن من صنع الصدف . لقد مهدت عوامل كثيرة وكبيرة نبيلة وعميقة لهذا الذي ربط

بين مصــر وسورية مهدت الطبيعة ومهد التـاريخ مهد الدم ومهدت اللغة مهدت الاديان ومهدت العقائد مهدت الســلامة المشتركة ومهدت الحرية كذلك اشتركت في التمهيد له تجارب من الالم والعذاب صنعها فرسان الطغيان الثلاثة السجن والنفي والمشنقة ولكن ذلك كله كان يمهد لهــذا الفجر الذي نشهــد اليوم مطلعه بعد ليل طويل .

أيهــا المواطنون أعضاء مجلس الامة : ولقــد كان البشير بالفجر هو ذلك القــرار الذي اتخذه مجلس النواب السوري واتخذه مجلسكم بالعمل فورا لتحقيق الوحدة بين مصر وسورية . كان قراركم هذا تعبيرا عن واقع هائل لا يمكن تجاهله وصدى مستجيب لنداء قدسي لا نستطيع ان نغلق آذاننــا دونه ولم يكن هــذا الواقع موجودا في دمشق والقاهرة وحدهما كذلك لم يكن ذلك النداء القدسي في هذا النطاق وحده لا يتجاوزه وانما كان الواقع موجودا في كل ارجاء الوطن العربي وكان النداء هو هدير التيار المتلاطم بالموج ذلك التيار الذي شقت القومية العربية كلها مجراه وحددت له خط سيره . وهكذا بدات في القاهرة محادثات نهائية لرسم الشكل الخارجي للحقيقة الواقعة ولقد كانت هذه المحادثات في القاهرة تجربة جديدة في التاريخ انها لم تكن اجتماعا يتم بنــاء على رغبة ساسة أو حكام وانما كانت اجتماعات تمت بنــاء على ضغط والحاح وارادة عنيدة مصممة صادرة من قلوب الشعوب ولقد كان خيرا على اي حال اننا تركنا الامور تصل الى هذا المدى فقد كان ينبغي للشعوب

ان تأخذ فرصتها كاملة حتى تترتب من نفسها وحتى يترسب ايمانها مع الايام الى اعماق القلوب وحتى تؤكد لهـا الحوادث والتطورات ان الطريق الوحيد هو طريق القوة طريق الحياة .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : كان معنى محادثتنا في القاهرة ووصول رائد الوحدة وبطلهـا ورافع علمهـا المجاهد شكري القوتلي الى مصر مع وفد من رفاقه فيالجهاد كان معناه ان الاوان قد آن ، وان الساعة التي تطلع اليها اجدادنا وعمل من أجلها آباؤنا قد دقت أجراسها وانه قد كتب لجيلنا بعـد ليل طويل أن يشهد مطلع صبحها كان معناه ان الذي نصبت المشانقلتحول دونه قد اصبحتله وحده قوة القانون وقدرته كان معناه ان الذي اصطنعت الفرقة بينه قد عاد الى طبيعته التي أودعها الله فيه كلا متجانسا متحدا كانمعناه انالسلاسل تكسرت وان السدود انهارتوان الحواجز سقطتوان الشظايا المتناثرة والاجزاء المتفرقة توشك أن تعود الى بعضها بل الى كلهـا كان معناه ان سورية ومصر قد قررتا تحمل المسؤولية التاريخية التي تهيأتا لها بوصفهما بلدين عربيين خلص زمام الامر فيهما لابنائهما وتحققت لهما في اراضيهما سيادة حقيقية واستقلالا كاملا كان ذلك معنى محادثات القاهرة .

أيها المواطنون اعضاء مجلس الامة : ولقد انتهت محادثاتنا الى اعلان الوحدة رسميا وتوقيع هـذا الاعلان في يوم السبت الاول من شباط ١٩٥٨ وقد اودع هـذا الاعلان التاريخي في مكتبمجلسكم وكانتالنتيجة الكبرىهيتوحيد مصر وسورية

في دولة واحـدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة يكون نظام الحكم فيها رئاسيا يتولى فيه السلطة التنفيذية رئيس الدولة يعاونه وزراء مسؤولون أمامه كمـا يتولى السلطة التشريعية مجلس تشريعي واحد ويكون لها علم واحد في وحدة يتساوى فيها أبناؤها في الحقوق والواجبات ثم كان اتفاقنا بعـد ذلك على المبادىء التالية لتقوم عليها الجمهورية ثم فترة الانتقال .

يا أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : هنا لا بد لي من وقفة اتحدث فيها عن دستور ١٦ كانون الثاني الذي كان مجلسكم أعظم نتائجه ان هذا الدستور خالد ولم يكن مفعولا ان الثورة التي وضعته وأعلنت قيـامه منبثقا من صميم ارادة الشعب وخلاصته وتجاربه لا ترضى لهذا الدستور أن يسقط أو يضيع ولكن الدستور كما قلت لحضراتكم يوم كان لي شرف الحديث اليكم هنا في يوم ١٦ كانون الثاني الماضي ليس مجرد النصوص الجـامدة وانما هو الحركة الدائمة اليقظة في اتجاه المستقبل الذي نسعى اليه وهو الاطار الذي ينظم هذه الحركة ويجمع صفوفهـا . ولقد وقعت حركة هائلة جمعت شعبين من امة واحـدة في جمهورية متحدة وكان لا بد أن يتسع الاطار لكي يضم النطاق الجديد لذلك كان لا بد لدستور ١٦ كانون الثاني أن يدخل في تجربة حيـاة أفسح وأرحب وكذلك كان لا بد لمجلسكم الذي كان اعظم نتـائج دستور ١٦ كانون الثاني أن يدخل نفس التجربة .

أيهـا المواطنون أعضاء مجلس الامة : قلت لحضراتكم مرة

اننا نعتبركم مجلس الثورة الجديد باعتبار ان الثورة مستمرة وانه لمما يدعو الى الامل ان تجربة الشهور القليلة التي مضت منــذ بدأ مجلسكم يمارس عمــله كانت تبشر بتعــاون كامل يستهدف صيانة مصالح الشعب ويسعى الى بنــاء المجتمع الجديد . وانه لحق علينا أن نقول لحضراتكم في هذه اللحظات الفــاصلة في تاريخ شعبنا انكم كنتم على خير مــا كنــا نؤمل ونتمنى ، وان مشاركتكم لنا في المسؤوليات كانت خير عون لنا فيما مضينا لتحقيقه من الامور وانه لمما يسعدني ان التطــور العظيم الذي نعنيه لن ينهي صحبتنا على الطريق ، وانما هو على العكس سيقوي الاواصر بيننا ويشد الصلات ويجعلنــا فيما نحن مقبلون عليه أكثر اندفاعا واكثر صلابة واعز وحدة وتضامنا .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : على انني أرى انه من واجبي في هذه اللحظات أن اصارحكم وشعب الجمهورية العربية المتحدة كله معكم ان الطريق الذي نقبل عليه طويل وشاق . إن رحلتنا عليه ليست نزهة نروح بها عن النفس وانما رحلتنا عليه مشاق ومتاعب وكفاح وجهاد ولكن هذه كلها هي الثمن العادل للامل الكبير الذي نسعى اليه . ولسوف يضاعف من مصاعب ما سوف نلقاه امامنا على الطريق ان الذين لا تروقهم وحدة سورية ومصر ولا توافق اغراضهم لن يتقبلوها بالرضا والسكوت وانما ستكون المساعي وستكون المحاولات وستكون المناورات ، لهذا أقول لكم من الآن اننــا في سعينا على طريق

أملنا يجب ان نظل مفتوحي الاعين منتبهي الحس والوجدان .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة اننا نعيش فترة رائعة ولكن علينـــا أن ندرك لهذه الفترة اخطارها أيضا ، وربما كانت شهوات انفسنا هي أكبر الاخطار التي يتعين علينا مواجهتها .

لقد مرت علينا قرون من الزمان واحلامنا وامانينا ورغباتنا واهدافنا حبيسة وراء الحواجز والسدود التي صنعها الاستعمار ولقد تهاوت الحواجز والسدود لما زال وجود الاستعمار من بلادنا ، وهكذا بدأت الاحـــلام والاماني والرغبات والاهـــداف تنطلق من عقالهـــا وتتدافع بسرعة بعد الكبت الطويل في مثل تدفق الفيضان ولقد كان هـــذا هو التفسير الحقيقي لسرعة الحوادث في جيلنا وهو امر طبيعي بعد اجيال عديدة مكبوتة ، ولكنه أيضا تحذير كما هو تفسير انه تحذير بأن من أول واجباتنا أن نقيم من الحكمة خزانات على امانينا ثم نفتح عيوننـــا ليمر التيار على شكل من الفيضان المنظم ولا يقفـــز فوق رؤوسنا كالطوفان العالي الشديد .

أيها المواطنون أعضاء مجلس الامة : انني واثق بأن التجربة التي نواجهها اليوم ستحقق كل ما يرجوه لها هؤلاء الذين عملوا لشرق فجرها طوال الليل الموحش المظلم ، وانه لمما يؤكد ثقتي ان الله تعالت قدرته قد جمع قلبنا بقلب خير رفيق على طريق خير سند في معركة خـــير قريب خير اخ خير حبيب لقـــد اكد شعب ســـورية بتجارب الايام تجربة بعـــد تجربة انه طليعة

القومية العربية وانه راس الحرية في اندفاعها وانه الحارس الامين لتراثها المجيد .

ايها المواطنون اعضاء مجلس الامة : لقد بزغ أمل جديد على افق هذا الشرق . ان دولة جديدة تنبعث في قلبه لقد قامت دولة كبرى في هذا الشرق ليست دخيلة منه ولا غاصبة ليست عادية عليه ولا مستعدية دولة تحمي ولا تهدد تصون ولا تبدد تقوي ولا تضعف لا تتحزب ولا تتعصب لا تنجرف ولا تنحاز تؤكد العدل وتدعم السلام توفر الرخاء لها ولمن حولها للبشر جميعا بقدر ما تتحمل وتطيق .

ايها المواطنون اعضاء مجلس الامة :

وفقكم الله وبارك لكم وحدتكم وحمى جمهوريتكم العربية المتحدة .

الفهرس

صدر حديثا للمؤلف

الاستاذ ابراهيم الحلو

منشورات مكتبة محمد حسين النوري

للطباعة والنشر بدمشق

١ ـ الشيوعية والصهيونية توأمان

يبحث عن الشيوعية وليدة الفكر اليهودي
وأثر الاموال اليهودية في نجاح الشيوعية

٢ ـ كفاح القومية العربية

يعالج تاريخ القومية العربية بأسلوب حديث
في عصر رائدها

الـرئيس

جمال عبد الناصر



كفاح القومية العربية

الثمن ١٢٥ ق.س